٤

رواد الاصلاح

الشيخ محمد حسين النائيني

منظّر الحركة الدستورية

ماجد الغرباوي



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ محمد حسين النائيني

منظّر الحركة الدستورية

رواد الاصلاح

سلسلة دورية تعنى بدراسة مشاريع الاصلاح
التي نهض بها الرواد المسلمون

الافكار الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي السلسلة

رئيس التحرير

مـاجـد الـغـربـاوي

المراسلات
الجمهورية الاسلامية في ايران
قم: ص ـ ب ٦٥١ ـ ٣٧١٨٥
تلفاكس: ٧١١١٩٩ (٠٢٥١)

مؤسسة الأعراف للنشر

رواد الاصلاح

٤

الشيخ محمد حسين النائيني

منظّر الحركة الدستورية

ماجد الغرباوي

الكتاب الرابع من سلسلة رواد الاصلاح

الطبعة الاولى ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

حقوق الطبع محفوظة

تقديم

لا يخفى ان الشيخ محمد حسين النائيني هو احد منظري الحركة الدستورية، وأحد قادة المواجهة ضد الاستعمار الاحنبي، اضافة الى موقفه المتشدد من الاستبداد بشتى انواعه . وقد كتب رسالته «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» في سياق شرعنة الدولة الدستورية، رغم اصراره على «غصبية السلطة» في حال غياب المعصوم او نائبه عن الحكم. وقد نجح الشيخ النائيني فعلاً في حل تلك الاشكالية المستعصية ـ اعني اشكالية تقسيم السلطة قسمة ثنائية لا ثالثة لها، فهي إما سلطة شرعية تكرر التجربة الاولى بزعامة امام معصوم او من ينوب عنه، او لا شرعية ـ عندما انتهى الى حل توفيقي استطاع ان يقيد به سلطة الحاكم المستبد وفق دستور ينتمي الى الشريعة الاسلامية، ويعترف للامة والفرد بحق المشاركة في السلطة مع اطلاق سراح مبادئ الحكم (الحرية، المساواة، والشورى) وتفعيلها داخل الوسط الاجتماعي من اجل تكوين دولة تتحرك في اطار الاسلام ولا تخرج عليه، وتحد من سلطة السلطان المطلقة.

ولم يبادر احد قبل الشيخ النائيني الى التفكير بحل اشكالية السلطة الراهنة في البلاد الاسلامية قبل الحكم عليها باللاشرعية، بل ظل الموقف واحداً منها على طول التاريخ تخوفاً من تهمة التواطؤ او المناورة السياسية، حتى فاتت فرص، في بعض الحالات، ربما حققت مكاسب اكبر من النتائج المتوقعة من العنف.

فليس مشروع النائيني عقد مصالحة بين الحق والباطل او صيغة للتعايش

مع الطاغية، وانما هو انتزاع الحقوق المغتصبة للامة، وتقييد المستبد ليمارس سلطته في اطار القانون.

قد لايكون الحل مرضياً، او ربما يتقاطع مع بعض الآراء الفقهية في مسألة الحكم، لكنه يبقى، مع عدم التوصل الى صيغة افضل، حلاً يقضي على عقدة التخلف، اي الاستبداد، ويمد المجتمع بنظرية اسلامية في الحكم والدولة، تسمح للفرد ان يمارس السلطة في ظل قيادة لا شرعية ـ كما يعتقد ـ دون ان تعطل القابليات، وتضيع الحقوق، وترزح الامة تحت نير الاستبداد الجائر.

ثمة حقيقة، ان خصوبة حياة الشيخ محمد حسين النائيني، وتعدد ادواره السياسية تساعد على رصد مواقف مختلفة، تدعو الى التأني في قراءتها بغية تحليلها وفرز عناصرها حتى لا نبتعد عن الحقيقة او نعتمد التبرير، فنخسر النتيجة المنتظرة من دراسة مشاريع الاصلاح، وهي التواصل مع الابعاد الايجابية فيها، ونقد الظواهر السلبية وتقويمها بغية التعرف على اسبابها، كي لا يتكرر الخطأ في حياتنا ونحن نخوض معركة التحدي على طريق التجديد والاصلاح.

وبهذا الكتاب تقدم سلسلة رواد الاصلاح احد المشاريع التي نهض بها رجل انهى حياته محارباً للاستعمار، مناهضاً للاستبداد، وقدم اطروحة جديدة في ارساء دعائم الحياة الدستورية، وسعى الى نقل السلطة من الاستبداد الى الدولة الدستورية. نرجو ان نكون قد وفقنا لعرض مقومات المشروع الاصلاحي للشيخ محمد حسين النائيني في جميع جوانبه ، وان كانت القراءة مكثفة، لكنها تتناسب مع حجم المساحة المقررة لها، ومن الله نستمد العون والسداد.

ماجد الغرباوي
٢١ / صفر / ١٤٢٠هـ
٦ / ٦ / ١٩٩٩م

الفصل الاول

الوعي في المنطقة الاسلامية

دخلت المنطقة الاسلامية مرحلة التخلف الحضاري في اعقاب افول دولة الخلافة وتسلط الدولة الأموية التي استخدمت القوة في انتزاع الشرعية، ومارست اول فصول الاستبداد متحدية بذلك ارادة الأمة ومبادئها في السياسة والحكم. فحل الاستبداد محل الشورى، واستبدلت الارادة العامة بارادة الحاكم، واختفت الحياة القانونية وتراجع الوعي تحت ضغط الاساليب القمعية والعمل الاعلامي الحكومي المكثف، الذي استهدف عقل الفرد وقيمه وسلوكه.

ثم جاءت الدولة العباسية لتستكمل الشوط الاموي وتمهد السبيل لتدافع موجات المغول واحتلال بغداد بقيادة هولاكو عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م. وبعدها بقرنين زحف تيمورلنك على دمشق ليكرر الدور الهولاكي فيها، ولتعيش دمشق ثانية وطأة الاستبداد والاضطهاد بعد ان واجهت قرنين من الزمان في ظل الحروب الصليبية المعتدية على بلاد الشام [١]. هذا الى جانب مالحق الاندلس من جراء الغارات المعادية منذ ١٠٦٠م حتى سقوطها عام ١٤٩٢م [٢].

واتسم الحكم العثماني بتكريس فقهاء السلطة، وبلورة الفقه السلطاني،

---

(١) المحافظة، علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، لبنان، بيروت، الاهلية للنشر والتوزيع، ط ١٩٨٣، ص١١.

(٢) سليمان، سمير، الاسلام والغرب.. اشكالية التعايش والصراع، ايران، مؤسسة التوحيد للنشر الثقافي، كتاب التوحيد (٢)، ط ١٩٩٥، ص ١٩ وما بعدها.

المكلف بشرعنة ممارسات السلطان، والابقاء على فقيه السلطة ليمارس تزييف الوعي ويقوم بدور المصالحة بين الطاغية والشريعة، التي ترفض روحها ومبادئها كل انواع الظلم والاستبداد وتعتبر العدل هدفاً مقدساً لحماية حقوق الفرد والأمة.

وفي الطرف الآخر من العالم الاسلامي (ايران) هناك الدولة الصفوية التي كرست الطائفية واستنبتت روح العداء بين المذاهب الاسلامية، وحولت، بمعية الدولة العثمانية، الود الاسلامي الى عداء متجذر، خلف حالة من الكراهية ظلت تسري في دماء المسلمين الى الوقت الحاضر. ثم تلتها الدولة القاجارية لتكون مثالاً للاستبداد والاضطهاد والتفرد في السلطة والتحكم برقاب المسلمين.

تلك الاحداث لم تمنع الوعي الرسالي وهمّ التغيير والاصلاح ان يراود ـ ولو خلسة ـ عقول شريحة من الأمة ظلت يقظة رغم الملابسات والتعقيدات الطاغية على الحياة العامة، بل من يتحرّ الموضوعية يستطع ان يحصي جملة ظواهر تكشف عن الرفض المستمر لدى هؤلاء، وقد عبر هذا الرفض عن نفسه عبر انتفاضات وثورات شعبية، او افكار تبث في الكتب، او حديث يدور همساً بين الافراد، او مواقف تحدٍّ بطولية، او مواجهات، او تحرك سياسي متوشح بسرية كاملة، او حركة علمية تنمو في منأى غير بعيد عن الحدث. لكن كل ذلك لم يتحول الى تيار متصاعد الا بعد التماس الاسلامي الغربي، حينما وطئت حملة نابليون ارض مصر حاملة معها رقي الحضارة الغربية، المدينة للحضارة الاسلامية في تطورها[3]. حينها اكتشف المسلمون الحقيقة، وتبصروا

---

(٣) سليمان، الاسلام والغرب، مصدر سابق.

واقعهم المتردي، وقدروا عبء المسؤولية، فطرحوا اول مرة سؤال النهضة: (لماذا تقدم الغرب وتخلف المسلمون؟) واخذوا يفتشون عن اسباب النهوض الحضاري فتعددت الاجوبة، وتعددت تبعاً لها الاتجاهات الثقافية والسياسية، لكن الاتجاه الاسلامي الواعي كان اوفر حظاً نسبةً الى التيارات الاخرى، التي خذلها الوعي فألقت بلائمة التخلف على الدين قياساً على النظام الديني المسيحي الكنسي، الذي ساد اوربا ابان القرون الوسطى، وكان المسؤول المباشر عن تخلف الغرب، متناسية بذلك دور الحضارة الاسلامية في تطور الحضارة الغربية، حيث بدأ الغرب يقتبس من الاولى في اول تماس لهما في الاندلس ابان القرن التاسع [٤]، ثم حوّل الغرب الشرق موضوعاً للدراسة والبحث، فشرع في دراسة مكوناته الثقافية والفكرية دراسة اكاديمية منظمة عبر الجامعات الغربية [٥].

ورغم ان الهدف الاساس وراء الاستشراق هو الاستحواذ على المفاصل الحياتية في الشرق الا ان ذلك لا يمنع من دراسته ايضاً بغية تفكيك بناه الفكرية لفرز عناصر القوة في الحضارة الاسلامية وتوظيفها في بناء حضارتهم المادية. وهذا ما حصل حقيقة، فإن الدعوة الى الاسلوب الموضوعي واعتماد الدليل والبرهان، واتباع الطرق العلمية للوصول الى الحقيقة، والحث على طلب العلم والمعرفة، والتأكيد على اليقظة والوعي المستمرين، كلها متبنيات

---

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٥) سعيد، ادوارد، الاستشراق (المعرفة، السلطة، الانشاء). ترجمة: كمال ابو ديب، ايران، قم، دار الكتاب الاسلامي، ط ٢، ص ٨٠.

اسلامية أكدتها الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة، فتركها المسلمون وامسكها الغرب لينال بها اعلى درجات الرقي الحضاري المادي. بل صار الغرب، بانماطه الثقافية والفكرية، يشكل تحدياً حقيقياً يخترق منظوماتنا الاخلاقية والدينية، ويطل علينا كل يوم بجديد يحرك فينا دافع الرغبة في احتذائه. ومن طرف خفي ينوع اقنعته في استعمارنا واستغلالنا، ونحن في غفلة من امرنا. لهذا صار الاصلاح والتجديد مهمة لا ينهض بها إلّا من أوتي همة عالية، وعقلاً يقظاً ووعياً ثاقباً، يحلل ويغور في الظواهر الاجتماعية ليصل الى الحقيقة، ثم يعلن عنها بجرأة وشجاعة كبيرتين.

عوامل النهضة الاسلامية الحديثة

لم تستفرد حملة نابليون بونابيرت على مصر في تكوين الوعي واحداث النهضة الاسلامية الحديثة وانما هناك عوامل متعددة ـ احدها حملة نابليون على مصر ـ تشابكت في انتاجها وبلورتها. نعرض لها بايجاز:

١ ـ علماء الدين:

تؤكد البحوث التاريخية الاجتماعية ان الواعين من علماء الدين هم الاكثر حظاً في تكوين الوعي، وأول المتصدين للاستبداد السياسي والتضليل الفكري، حتى انقادت لهم الأمة واستجابت لنداءاتهم الثورية، رغم ضخامة التبعات والتضحيات.

واذا اردنا ان نغور قليلاً في عمق التاريخ الاسلامي نجد ان ثورة المدينة ضد الخليفة الثالث هي اول موقف جريء واجه العبث بمقدرات الأمة الاسلامية والاستفراد بالسلطة. ثم تبعتها ثورة الامام الحسين (ع) لتواجه

الاستبداد السياسي بالتضحية والفداء. وقد امتازت الثورة بالتصدي المباشر للسلطان الجائر من جهة واستبطنت فضحاً صارخاً لفقهائه الذين كرسوا وجودهم لشرعنة ممارساته واخطائه وتأكيد دكتاتوريته واستبداده وتعاليه على البشرية جمعاء.

واستمر علماء الدين في قيادة حركة الوعي وسط الامه حتى الوقت الحاضر، وكانت آخر حلقاتها وليس اخيرها قيام الدولة الاسلامية بقيادة الامام الخميني.

واما قبل هذا التاريخ فيمكن ان نحصي قائمة من العلماء الذين سجلوا مساهمة واضحة في عملية تكوين وعي الأمة واحداث يقظتها. فبعد الشيخ حسن العطار هناك السيد جمال الدين الحسيني المعروف بـ (الافغاني) والطنطاوي، خير الدين التونسي، محمد عبده، عبد الحميد ابن باديس، الميرزا الشيرازي، الكواكبي، عمر المختار، شكيب ارسلان، الآخوند الخراساني، علي شريعتي، السيد محمد حسين الطباطبائي، السيد محمد باقر الصدر، السيد محمد حسين بهشتي، الشيخ المطهري، السيد المدرسي، الشيخ مفتح...وغيرهم.

وقد جاءت ادوار هؤلاء الثلة الواعية متكاملة رغم التفاوت في نسبة التأثير داخل الوسط الذي احتضن حركتهم. فبعضهم قاتل على صعيد التحرر من الاستعمار، والآخر استمات من اجل حرية امته وشعبه، وبعض عمل على صعيد اصلاح المناهج الدراسية والتعليمية، وآخر كرّس وقته لتأصيل النظرية الاسلامية، بعد اكتشاف مبانيها وركائزها. واشتركوا جميعاً في القدرة على تشخيص الواقع وقراءة الاسلام قراءة تحفظ له مقاوماته وقدرت على تلبية متطلبات العصر وحاجاته.

ومن الرواد المصلحين الذين لعبوا دوراً كبيراً على صعيد السياسة والفكر، هو الشيخ محمد حسين النائيني، الذي خصصنا له هذا العدد من سلسلة رواد الاصلاح.

٢ ـ السيد جمال الدين الحسيني (الافغاني):

لسنا نغالي عندما نتحدث مستقلاً عن السيد جمال الدين الحسيني المعروف بالافغاني ضمن عوامل النهضة في الوطن الاسلامي، وانما يكشف ذلك عن حجم الاثر الذي تركه على الساحة الاسلامية. فقد سجل السيد جمال الدين منعطفاً تاريخياً في حركة الوعي، من خلال مشروعه الاصلاحي الواسع والجاد، الذي استهدف احياء الشخصية الاسلامية واعاد بناءها عبر اصلاح الفكر والمقولات والرؤى التي اصابتها تشوهات كثيرة بفعل عوامل متعددة، اودت بها الى الانحطاط والتبعية، والاقصاء المتكرر للفرد المسلم كي يغادر موقعه الحضاري الفاعل، ويتخلى عن مسؤوليته تجاه امته ودينه، ويهمش دوره في صناعة التاريخ، ويعجز عن بناء مستقبل طموح يتناسب وحجم المبادئ والقيم التي آمن بها، فجاء السيد جمال الدين ليعيد لتلك الشخصية المستلبة، المقموعة في داخلها، اوالمحاصرة من قبل الاستعمار والإستبداد، قدرتها على النهوض، واتخاذ مواقف تناسب مرحلتها الراهنة. وفعلاً استطاع جمال الدين ايقاظ الأمة، فاندفعت تحطم اغلال العبودية وتواجه التحديات بثقة عالية.

اما الملامح الرئيسية لمشروع السيد جمال الدين فهي[٦]:

---

(٦) راجع: مجلة التوحيد، العدد ٨٩، كلمة التحرير.

محاربة الاستعمار.

مناهضة الاستبداد.

اشاعة وتركيز الوعي.

تنقية الفكر الاسلامي من الشوائب.

توحيد المسلمين في اطار الجامعة الاسلامية.

٣ ـ التحديات الخارجية:

اتسمت العلاقة بين الاسلام والغرب منذ اول تماس على ارض الاندلس بعدم التكافؤ، حيث كان الاسلام هو المركز والذات المتعالية بعزة تقدمها الحضاري والغرب هو الآخر المستتبع، يعيش على موائد المسلمين العلمية، فيتعلم ويعي ويستفيد ويتطور يوماً بعد آخر. غير انه سرعان مافتئت النزاعات الداخلية والصراعات السياسية تحصد الدولة الاسلامية، والغرب يحاول بناء نفسه علمياً وعسكرياً لينقضّ بتقدمه الحضاري المادي ـ فيما بعد ـ على الحضارة الاسلامية في الاندلس، ثم يعبر مضيق جبل طارق ليمتد الى ارض المسلمين في كل مكان. وبهذا انقلبت مصاديق الثنائية المعروفة (الأنا والآخر) فصار الغرب هو الذات المهيمنة والمسلمون هو الآخر المتخلف الذي يدور حول المركز.

هذا التطور لدى الغرب اثار تساؤلات كثيرة وطرح جملة من الاستفهامات طالت كل شيء في الثقافة الاسلامية بحثاً عن الاجوبة المقنعة. منها:

كيف تطور الغرب وتخلف المسلمون ؟

هل يمكن ان نرتقي السلم الحضاري ثانية ؟

هل الخلل في الفرد ام في الثقافة ام في الفكر ؟

بذلك تصاعدت وتيرة الوعي فحصلت مراجعة اتسمت بالعنف في كثير من الاحيان، انتجت فكراً جديداً وثقافة تعيد الثقة للنفس المتحطمة، وتحثها على مسارعة الخطى للحوق بركب الحضارة الجديدة دون التخلي عن الهوية الحضارية للامة.

٤ ـ الرقي الثقافي المتصاعد:

لما احس المسلمون بنقطة الضعف بالقياس الغرب انساقوا في طريق العلم وتحصيل المعرفة، فبادر بعض الطلاب للسفر الى اوربا لإكمال دراساتهم الاكاديمية والاستفادة من معطيات العلم الحديث واكتشاف حقيقة الحضارة التي غدت تشكل تحدياً سافراً لكل القيم والمبادئ. ثم تطورت السفرات الشخصية الى بعثات علمية متعددة ومنظمة. فكان لسفر هؤلاء الاثر في نقل معالم الحضارة الحديثة وانماطها الثقافية والمعرفية، مما تسبب في تصاعد مديات الوعي لاسيما في وسط الشبيبة. واخذت الرغبة في الحصول على العلم تزداد يوماً بعد آخر، فازداد عدد المتعلمين والمثقفين وتلونت تبعاً لذلك الحالة الثقافية وطرحت افكار جديدة حول الحالة السياسية والثقافية وبدأت تتشكل علامات استفهام عن قيمة التراث والدين.

وفي اثر ذلك ازداد عدد الصحف الصادرة في البلدان الاسلامية لتصبح منبراً اعلامياً تثير سجالاً واسعاً حول القضايا الراهنة.

كما قدم بعض المثقفين قراءة جديدة للواقع الاسلامي واصالته وتاريخه وقيمه آثارت حولها شكوكاً مختلفة.

وساهم البعض بترجمة الكتب والافكار الغربية، إلّا انها ترجمة غير منضبطة جداً فأدت الى انتشار بعض الافكار العلمانية والالحادية، وتعالت

إثرها صيحات قومية وتغريبية.

كما ينبغي الاشارة الى ان تأسيس المطابع في انحاء العالم الاسلامي في وقت مبكر هو الآخر ساهم في انتشار الكتاب والصحيفة وبالتالي تطور الحالة الثقافية واشباعها بقدر كبير من الوعي.

الحالة الثقافية في ايران والعراق

لم تكن ايران والعراق منقطعتين عن الساحة الاسلامية، بل ان الحالة العامة لهما ادعى للوعي واليقظة المبكرين. فكل من الدولتين امتازت بوجود مراكز علمية كبير على اراضيها، الحوزة العلمية في مدينة النجف في العراق، والحوزة العلمية في مدينة قم والمدن الاخرى في ايران.

فالانطلاقة العلمية والثقافية كانت تبدأ من تينك المدينتين لتمتد وتغور في عمق الوسط الاجتماعي فتأتي الاستجابة الجماهيرية من خلال الالتفاف حول علماء الدين وسلب اي شرعية توازي شرعية المركز كما يفهمه الناس. وبذلك تمكن المسلمون من اتباع مدرسة اهل البيت لمواجهة التحديات السياسية الصادرة عن السلطان الجائر.

وكان تحدي العلماء الامامية للسلطان مبكراً، فلم يسجل التاريخ علاقة ودية بين الطرفين الا في دولة البويهيين وبعض مراحل الدولة الصفوية التي كانت بحاجة ماسة في تكوين شرعيتها الى الفقيه، لكن حاجتها كانت اكبر لتوظيفه عاملاً مؤثراً في تكوين آيديولوجية مضادة للايديولوجية السنية الحاكمة في الدولة العثمانية. والثانية اخذت تلاحقها علامات الاستفهام الكثيرة لما خلفته من آثار سلبية على الوعي.

ولم تكن الايجابية من السلطان آنذاك موقفاً استراتيجياً للطائفة الشيعية

بل بعض العلماء استعصى على الانسياق في لعبة السلطان. فبهاء الدين العاملي والاردبيلي والشيرازي والقطيفي ارقام مهمة في المرجعية الشيعية الا انهم حافظوا على استقلاليتهم مدرسياً ومالياً[7]. فهم غير مضطرين للسلطان، لأن النظام التعليمي في الحوزات العلمية لم يرتبط بالمؤسسات الاكاديمية الحكومية. وكذا الحال في الامور المالية، فإن الفقيه ومرجع الطائفة يغطي نفقات المرجعية وتسوية حسابات ميزانيتها عن طريق الضرائب المالية الشرعية (الخمس، الزكاة، وموارد اخرى). فهو مستغنٍ بشكل كامل عن السلطان، بل ان اتباع المذهب يعتقدون بوجوب اعطاء الاموال الشرعية الى الفقيه فقط. ولايجوز التصرف بها الا باذنه او اذن وكيله، مما وفر على الفقهاء مؤونة التراجع امام تحديات السلطان واغراءاته.

ولم تختلف الحال ابان الدولة البويهية. ففي تلك الفترة بالذات استطاع المذهب الامامي ان يعيد بناء نفسه ويمتد الى مديات كانت محظورة فيما مضى. فكانت فترة وعي وتأسيس للعلوم الدينية وفق مباني واصول المذهب ذاته.

والذي ساعد على ذلك كثيراً هو هامش الحرية الكبير الذي منحته الدولة البويهية لعلماء الدين، فاستغل العلماء حالة التراخي السياسي لينطلقوا في تعميق الوعي وسط الأمة ويرسموا ملامح المدرسة الامامية بشكل واضح، فلم يرتبط الانتاج العلمي في جوانبه الاصولية والفقهية والكلامية في العهد

---

(٧) كوثراني، د. وجيه، الفقيه والسلطان، لبنان، بيروت، دار الراشد، ط ١٩٨٩، ص ١٥٣.

البويهي، وهو انتاج تأسيسي في تكوين المذهب على مستوى المقالة، بمشروعية الامير او السلطان البويهي او شرعيته، بل ان اجواء الحرية، ومواقف الدعم التي حظي بها فقهاء الشيعة من قبل السلاطين البويهيين ـ كما قلنا ـ شجعت هذه الاستجابة الفكرية الجديدة وسمحت بها. ولم تطرح هذه العلاقة الايجابية على فقهاء الشيعة آنذاك اعترافاً صريحاً بشرعية السلطة القائمة. انه نوع من قبول ضمني متبادل وتوزيع للادوار في اجتماع سياسي اسلامي. فمن ناحية الفقهاء، اكتفى هؤلاء بمجال التدريس الذي دعمت مؤسساته وشجعت، وبمجال القضاء الذي حافظ على استقلاليته في غالب الاحيان[8].

اما العامل الآخر الذي ساعد كثيراً على اتساع رقعة الوعي فهو التحديات المستمرة التي واجهتها الشعوب الاسلامية في كلا البلدين من (الداخل والخارج) فان الصراع بين الدولتين الصفوية والعثمانية تحول الى صراع طائفي اودى بحياة الكثيرين من كلتا الطائفتين. فكل دولة كانت تعمق الحس الطائفي لدى شعبها وتؤلبه ضد اخيه المسلم من منطلق طائفي عدواني.

هذا الصراع ادى الى اضطهاد السنة القاطنين تحت سيطرة الدولة الصفوية[9]. واضطهاد الشيعة الساكنين في دائرة السيادة العثمانية. والذي ساعد

---

(٨) المصدر نفسه، ص ١٤٨ وما بعدها.

(٩) الوردي، د. علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، قم، انتشارات الشريف الرضي، ١٤١٣ هـ ط ١، ص ٥٧ ـ ٥٩.

على تمادي الدولة العثمانية في بطشها هو سهولة انتزاع فتوى جواز قتل المخالف، من فقيه السلطة حتى ان السلطان سليماً عندما اعلن نفسه حامياً لاهل السنة وزعيماً لهم «استحصل من بعض رجال الدين فتوى تجيز له قتل الشيعة، باعتبارهم مارقين عن الاسلام، ثم وضع خطة للقضاء على جميع الشيعة الساكنين في داخل الحدود»[١٠].

والعامل الثالث في مسار الوعي هو ظهور طبقة المثقفين المتعلمين في اوربا او دول آسيا الوسطى وروسيا. ورغم النزعة التغريبية التي اتصف بها جلهم الا ان هؤلاء ساهموا بشكل وآخر في تطور الوعي العام، من خلال علامات الاستفهام التي اثاروها حول الثقافة والفكر والسياسة، وتصديهم للكتابة في الصحف الداخلية والخارجية، اضافة الى تأسيس بعض الصحف من قبلهم. وتكرر لقاءاتهم بالغرب واطلاعهم على الجديد من الافكار والثقافة الحديثتين من خلال السفر المتواصل الى هناك. فبادروا الى نقل تلك الافكار الى بلادهم. فدعا فتح علي آخوند زاده ١٨١٢م ـ احد النخبة المتغربة في ايران ـ الى علمنة الدولة ورفض الاستبداد واعتبر الشعب المسؤول الاول عن الاستبداد. غير ان تقاطع الكثير من افكاره مع ثقافة الأمة وقيمها حال دون استقطاب الانصار المؤيدين ماعدا ثلة من المثقفين[١١].

---

(١٠) المصدر نفسه، ج ١ ص ٤٥. وانظر الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت ١٩٦٠، ص ٤٠. والعلوي، حسن، التأثيرات التركية في المشروع القومي العربي في العراق، لندن، دار الزوراء، ١٩٨٨.

(١١) حائري، د. عبد الهادي، تشيع ومشروطيت در ايران (بالفارسية)، طهران،

آقا خان كرماني ١٨٥٣م، دعا ايضاً الى حاكمية القانون ورفض الاستبداد وتشكيل مجلس نيابي. الا انه هو الآخر حرم من الانصار والمؤيدين[١٢].

ومنهم، محمد خان سينكي ١٨٠٩م، ميرزا حسين خان سبهسالار ١٨٢٦م.الذي عمل كثيراً في السلك الدبلوماسي، وعرف بتغربه ودعوته المستمرة الى اللحوق بالغرب.

يوسف خان مستشار الدولة ١٨٩٥م، الذي قارن بين القانون الاسلامي والفرنسي وكان يصر على تقدم الاخير على الاول[١٣].

وقد اشترك هؤلاء بالدعوة الى محاصرة الدين وضرورة فصله عن الدولة والحياة العامة[١٤]. فظلوا يدورون في دائرة المثقفين دون التغلغل في وسط الأمة، غير ان تلك الافكار اثارت جدلاً داخل الوسط الايراني، رغم محدودية انتشارها، ونبهت الناس الى مفاهيم لم تطرق اذهانهم من قبل. ورغم دعوة تلك الافكار للتغريب ـ بشكل مباشر او غير مباشر ـ الا ان مضامينها كانت جذابة ومشجعة تستهوي المتطلعين للحرية، والرافضين للاستبداد والتسلط.

ثم جاء ملكم خان ١٩٠٨م، ذو الاصل الارمني، الذي عاش اكثر حياته في اوربا فدعا للاصلاح، ونادى باستبعاد الدين، لاسيما في مجال التعليم،

سبهر، ط ٢، ١٩٨٥، ص ٢٦.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٣١.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٣٧ ومابعدها.

وطالب العلماء المجتهدين بالمشاركة في المجالس النيابية[١٥]. كما اسس محفلاً ماسونياً في طهران ؟

وتلاه عبد الرحيم طالب اوف ١٩١١م الذي ترعرع وكبر في روسيا، فدعا الى حرية الهوية والعقيدة والرأي، والصحافة، والتجمعات، والانتخابات[١٦].

غير ان افكار الاخير لم تر النور طويلاً، اذ تصدى لها الشيخ فضل الله النوري وكفّر طالب اوف[١٧].

اما في العراق فيمكن ان نذكر نموذجين للمثقفين، الاول تفوح منه رائحة التغريب والدعوة الى الملكية ومساندة الاستعمار. الا ان افكارهم اثارت جدلاً واسعاً في الوسط العراقي. كالشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي الذي دعا الى سفور المرأة والتخلي عن الحجاب مما اثار ضجة كبيرة[١٨].

والنموذج الآخر تجسدت فيه روح الاسلام وافترق عن جميع المثقفين المتقدمين بدعوته الى الاصلاح والتجديد من داخل الدين، ودعا الى اعادة قراءة الدين قراءة صحيحة تنسجم مع الظروف الزمانية والمكانية، وصاحب هذا الاتجاه هو السيد هبة الدين الشهرستاني، الذي صدرت صحيفته (العلم) عام ١٩١٠م.

وكان لأفكار السيد الشهرستاني اصداء قوية واثارت جدلاً واسعاً لاسيما

---

(١٥) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٥١.

(١٨) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٥ و٥٩.

داخل الحوزة العلمية في مدينة النجف[19].

كما اشتهر الشيخ محمد جواد البلاغي في كتابة مجموعة كتب دافع فيها عن الاسلام وحذر من مخاطر الاختراق الثقافي.

والى جانب طبقة المثقفين هناك الصحف والجمعيات السياسية، العلنية والسرية، بمختلف اتجاهاتها والنشاطات الاجتماعية المترشحة عن الوعي الجديد للحالة السياسية والثقافية. فهناك «دار الفنون في طهران المهتمة بتخريج موظفين اكفاء للدولة ودبلوماسيين»[20] واشرف عليها اساتذة اوربيون.

ومن الصحف الفارسية الصادرة في تلك الفترة: (اختر) التي كانت تصدر في اسطنبول، و(حبل المتين) في كلكتا، وصحيفة (ثريا) في القاهرة.

وفي العراق هناك مجلة (العلم) التي اصدرها السيد هبة الدين الشهرستاني، (درة النجف) التي تطبع بالفارسية وقد اسسها حسين الصحاف (الغري) وصدرت بالعربية، وقد اسسها الشيخ آغا محمد المحلاتي، وجريدة (النجف) لمسلم زوين[21].

وقد لعبت تلك الصحف دوراً بليغاً في ترويج الفكر الاصلاحي والدعوة الى التجديد وكانت اكثرها تأثيراً في الوسطين السياسي والثقافي هما العلم

---

(١٩) الرفاعي، عبد الجبار، جدل التراث والعصر، كتاب قضايا اسلامية معاصرة (٧)، ص ٨.

(٢٠) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٠٥.

(٢١) كمال الدين، محمد علي، ثورة العشرين في ذكراها الخمسين ـ معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠م، بغداد ١٩٧٥، ص ٥.

والحبل المتين. والاخيرة هي (لسان حال الاحرار في العالم الشرقي الاسلامي فكانت تهاجم الحكومة القاجارية وتاريخ القاجار واثبات معايبهم وظلمهم، كما تطري المجاهدين المصلحين امثال السيد جمال الدين الافغاني الذي وقف في وجه الاستبداد القاجاري والفوضوية القاجارية.

وكانت (حبل المتين) تأتي بغداد بلا رقابة غير ان وصولها الى كربلاء والنجف كان عسيراً لوقوف السلطة ضدها وضد الفكرة»[22].

الحركة الدستورية والوعي

اتضح مما تقدم ان الحركة الدستورية والدعوة الى رفض الاستبداد وحاكمية القانون لم تكن وليدة الصدفة او مبادرة شخصية، وانما تكونت الفكرة عبر مخاضات فكرية وتحولات ثقافية متلاحقة، ابتدأت في اوربا بانطلاق الثورة الفرنسية فالانجليزية والامريكية، ثم امتدت اشعاعات تلك الثورات الى المنطقة الاسلامية فثار حولها جدل واسع حركت كوامن الوعي لدى الفرد المسلم واخذ يتطلع الى مستقبل افضل وعاد الى التراث والدين ثانية ليعيد قراءتهما وفهمهما من جديد بغية الوصول الى هدفه من خلال الدين والتراث وليس منفصلاً عنهما.

ولما بادر الشيخ محمد حسين النائيني الى التنظير للحركة الدستورية في اطار الرؤية الاسلامية والف كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) لقي صدىً واسعاً، وصار وثيقة فكرية ـ فقهية ـ سياسية تساهم في حل الاشكالات والتساؤلات الراهنة في ذهن الفرد المسلم والمتراكمة عبر حقب زمانية متعددة.

---

(٢٢) الخاقاني، علي، شعراء الغري، النجف، ١٣٦٥ هـ، ج ١٠، ص ٨٥.

فصارت الدعوة الى حاكمية الدستور وضرورة تأسيس المجالس النيابية ومشاركة الأمة في الحكم ورفض الاستبداد مفاهيم حية وفاعلة لانها تتكئ الى الدين الحنيف ومبادئه السامية.

والذي شد عضد المسيرة الجديدة تقدم العلماء للدعوة الى الدستور ووقوفهم مع الشعب ضد الاستبداد والتسلط. لذا شكلت الحركة الدستورية منعطفاً تاريخياً في ايران امتد ليؤثر بشكل وآخر في احداث العراق المتلهبة. ويعتقد بعض الباحثين (ان اول حدث نبه اذهان العراقيين الى السياسة هو مايسمى بحركة المشروطة، اي حركة المطالبة بالدستور، وذلك عام ١٩٠٦م حين وصلت الى النجف انباء النزاع الذي استفحل في ايران بين انصار المشروطة وانصار الاستبداد)[٢٣].

ثمة حقيقة اخرى هي ان ثورةالتبغ (التنباكو) كان لهل دور بالغ في تعزيز قيادة العلماء للاحداث الكبرى، حيث استطاع الميرزا محمد حسن الشيرازي ان يفشل خطة ناصر الدين شاه في منح الشركات الانجليزية احتكار امتياز تجارة التبغ في ايران مقابل مبلغ من المال يعده الشاه ضرورة ملحة لانهاء الازمة الاقتصادية الخانقة. ويصبح من حق الشركة بموجب هذا الاتفاق شراء جميع محصولات التبغ الايراني وتصديره الى الخارج او بيعه،وبعد ان تسرب خبر الاتفاق الى الجمهور تصدى علماء الدين للمؤامرة وشرعوا بحملة توعية جماهيرية عبأت الرأي العام في البلاد، ثم اصدر الميرزا الشيرازي فتوى التحريم الشهيرة التي ارغمت الشاه على التخلي عن التزاماته تجاه الاتفاقية

---

(٢٣) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ٣٠٢.

التجارية التي ابرمهامن قبل مع الشركة الاجنبية.

وبهذا استطاع علماء الدين ان يثبتوا مصداقيتهم في قيادة التحرك الجماهيري. وصارت ثورة التبغ نقطة انطلاق لاي تحرك جماهيري جديد، وشكلت سابقة تاريخية مشجعة للنهوض والثورة، كانت حاضرة في ذاكرة رجال الحركة الدستورية في ما بعد.

«وكان هذا الانتصار اول انتصار تسجله حركة مطلبية شعبية في تاريخ ايران الحديث، بل في تاريخ العالم الاسلامي الحديث، وكانت هذه هي الخطوة التمهيدية للحركة الدستورية اللاحقة في ايران»[٢٤] بل ان هذه الفتوى هي «احدى اهم المواقف والنشاطات الفكرية والسياسية للعلماء المسلمين الشيعة في العراق، في اواخر القرن التاسع عشر، وشكلت مظهراً رئيسياً من مظاهر الاتجاه الثقافي الفكري ـ السياسي الاسلامي الذي مهد لقيام الحركة الدستورية في العراق اوائل القرن العشرين»[٢٥].

---

(٢٤) الرهيمي، عبد الحليم، تاريخ الحركة الاسلامية في العراق.. الجذور الفكرية والواقع التاريخي، لبنان، بيروت، دار النبوغ، ط ٢، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م، ص ١٣١.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١٣١.

الفصل الثاني

جذور الوعي والحركة الدستورية

النشأة الاولى

بدأ المشهد الاول من حياة الشيخ محمد حسين النائيني في مدينة نائين من توابع محافظة اصفهان في ايران، عندما بصر الحياة اول مرة في عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م[1]. فترعرع في حضن ابيه، الذي كان يشغل منصب «شيخ الاسلام»، وهو منصب سلطاني يمنحه الأخير لمن يشاء من الفقهاء. فيعين السلطان الفقيه، ويمنح الفقيه السلطان الشرعية. وفي ظل السلطان يمارس الفقيه اعماله مفتياً دينياً لتلك المنطقة، وفي ظل الفقيه يمارس السلطان ما يشاء من الافعال والممارسات.

---

(١) قال السيد الامين: ان مشيخة الاسلام آلت بعد وفاة الاب الى الابن الاصغر. وقال: «كان ابوه يلقب بشيخ الاسلام في اصفهان وهو لقب سلطاني، وكذلك اباؤه من قبله، وبعد وفاته لقب به اخوه الاصغر، اما هو فكان شيخ الاسلام بحق لا بفرمان سلطان» كما ذكر ان ولادته كانت في سنة ١٢٧٣ هـ، انظر: الامين، السيد محسن، اعيان الشيعة، تحقيق: حسن الامين، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ج٦، ص ٥٤.
بينما قال الدكتور حائري ان مشيخة الاسلام كانت لجده ثم انتقلت لأبيه، وانهما كانا شيخي الاسلام في نائين. وذكر في هامش هذه المعلومات عن حياة النائيني انه استقاها عن احد اخوة النائيني واحفاده.
انظر: حائري، تشيع ومشروطية، مصدر سابق، ص ١٥٣، وانظر ايضاً: ص ١٩٨ الهامش الاول.

بدأ النائيني حياته العلمية في نائين ثم انتقل في السنة السابعة عشرة من عمره الى اصفهان ليلتحق بإحدى المدارس العلمية التابعة للحوزة العلمية هناك.

وفي اصفهان تكوّن وعيه الاول وارتسمت ملامح شخصيته، وخرج منها على خلفية رفضه لمطلق الاستبداد.

فأول وأطول محطاته الدراسية كانت على يد الشيخ محمد باقر الاصفهاني، الذي رافقه سبع سنوات متواصلة خرج بعدها بانطباع سيّئ عن الممارسات الاستبدادية المتمثلة بهذا الشيخ.

فالشيخ الاصفهاني كان ينتمي الى اسرة علمية مهمة وكان ابرز المجتهدين في اصفهان، فمنحه انتماؤه الاسري ثقة عالية بالنفس وتعالياً شعر معهما بالاستقلالية عن الدولة حتى اخذ ينفذ الاحكام ويقيم الحدود في اصفهان بمعزل عن السلطات القضائية فيها، بل تجاوز الى قتل بعض المنحرفين عقائدياً.

وقد تعرض الشيخ الى انتقاد شديد من قبل مؤلف كتاب الرؤية الصادقة، لمشاركة الاول في احداث اصفهان عام ١٨٧٨م، والتي كان فيها الشيخ يواجه المحتكرين للاطعمة فالتف الناس من حوله الا انه سرعان ما تواطأ مع سلطان اصفهان مما افقده شعبيته.

وكان مجيء الشيخ النائيني في آواخر تلك الاحداث، فاطلع عن قرب على تفاصيل تلك المواجهات الدامية، وتعرّف على اسبابها الحقيقية واكتشف من كان وراءها[٢].

والى جانب الشيخ محمد باقر كان ولده الشيخ محمد تقي المعروف

---

(٢) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٥٣.

بالنجفي، وهو ايضاً من الروحانيين ذوي النفوذ والثراء، وقد سيق مرتين الى طهران بتهمة قتل مجموعة من الناس، اضافة الى اتهامه بفساد العقيدة.

وحينما عاشت اصفهان فترة القحط والعوز في الاغذية كانت اصابع الاتهام تشير الى الشيخ محمد تقي، وانه وراء غلاء الاسعار واحتكار المواد[٣].

هذا هو المحيط الذي احتضن النائيني في اصفهان وكان مضطراً اليه بسبب العلاقة العائلية بينه وبين الشيخ محمد تقي من جهة، وحداثة خبرته الحياتية من جهة اخرى. غير ان ذلك الجو القاتم لم يؤثر على الشيخ باتجاه الاستبداد وممارسة الظلم باسم الدين وانما كانت ردة الفعل انه احتفظ بصورة سيئة عن الاستبداد، وعن الاستبداد الديني بشكل خاص، لهذا ضمّن كتابه اشارات وتصريحات واضحة اعتبر فيها الاستبداد واحداً في جميع انواعه، بل ان الاستبداد الديني اشد من الاستبداد السياسي، لقدرته على التلبس بالدين وارتداء الشرعية واخفاء الحقيقة، فيمارس صاحبه الاستبداد باسم الدين والشريعة.

هذه الاطلالة السريعة على حياة الشيخ في اصفهان ستضعنا في سياق الرؤى الصحيحة لتفسير عدد من مواقفه وسلوكه تجاه الممارسات الاستبدادية، ولايمكن ان نفهم دوافع الشيخ النائيني في مناهضة الاستبداد وخروجه على المألوف من حياة عائلته العلمائية وحياة غيرها من الاسر العلمية بمعزل عن هذه الفترة الحساسة من حياته.

ورغم الحياة القاسية في اصفهان لكنه استطاع ان ينهي عدداً من المناهج الدراسية المقررة في الحوزات العلمية آنذاك. ودرس الاصول على يد الشيخ

---

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

ابو المعالي الكلباسي، والشيخ جهانكيري ومحمد حسن هزار جريبي. والكلام والفلسفة عند الشيخ محمد تقي نجفي الاصفهاني، والفقه عند الشيخ محمد باقر الاصفهاني[٤].

فتطلعت نفسه الى مزيد من العلم والمعرفة والتزود من الحقائق العلمية فتوجه صوب مدينة النجف في العراق لينتظم في جامعاتها العلمية ويواصل حياته الدراسية على يد اكابر المجتهدين والفقهاء آنذاك.

وقبل ان نتطرق الى حياة الشيخ في العراق نشير الى وجود معلومة تؤكد علاقته بالسيد جمال الدين الاسد آبادي المعروف بالافغاني[٥]. فاذا صح ذلك فهذا يعني انِ الشيخ قد تأثر بافكار السيد جمال الدين، لقدرة الاخير على التأثير البالغ في مخاطبيه.

غير ان الفترة التي قضاها النائيني في اصفهان هي من عام ١٨٧٧م الى عام ١٨٨٤م ووصل العراق عام ١٨٨٥م[٦]. وفي هذه الفترة بالذات كان السيد جمال الدين متنقلاً بين عدد من عواصم العالم ولم يصل ايران الا في عام ١٨٩٦م[٧]. وغادرها الى بطرسبرج عام ١٩٨٨م. فمتى تم اللقاء واين وكيف ؟

---

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

(٥) انظر: مجلة «حوزه»، السنة الخامسة، العدد: ٣٠. في مقابلة اجرتها المجلة مع احد الشخصيات العلمية المعاصرة للشيخ النائيني وهو السيد حسيني همداني (نجفي)، ص ٤١، وقد دار الحوار حول علاقة السيد حسين همداني بالشيخ النائيني.

(٦) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٥٥.

(٧) انظر: امين، احمد، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، بيروت، دار الكتاب العربي، ص ٩٥، وانظر ايضاً الرفاعي، عبد الجبار، موقظ الشرق ...قراءة في

تبقى علامات استفهام حائرة لولا ان الناقل رجل مسن وعالم دين وقد عاصر الشيخ النائيني وينقل عنه مباشرة، ويدعي انه رأى احدى رسائل السيد جمال الدين الموجهة الى الشيخ النائيني.

وربما كان النائيني يعرف السيد جمال الدين من خلال مطالعاته للصحف الصادرة آنذاك والمقالات التي كان يكتبها بيده في العروة الوثقى وغيرها، وكان متأثراً به وبمواقفه الشجاعة ضد الاستبداد، فعرف الشيخ النائيني بولائه للسيد جمال الدين، لذلك ارسل الاخير رسالته عن طريق الشيخ النائيني. لكن هذا يبقى مجرد احتمال وتكهن لاتدعمه الوثائق العلمية.

ويتضح ايضاً ان الشيخ لم يغادر ايران متوجهاً الى العراق حتى وعى عقدة التخلف في المجتمع الاسلامي وشخّص نقاط الضعف المتولدة عن الاستبداد.

في مدينة سامراء

لم يمض النائيني وقتاً طويلاً في مدينة النجف بل سرعان ما غادرها متوجهاً الى سامراء للانضمام الى درس الميرزا محمد حسن الشيرازي، وهناك ظهرت عليه علامات النبوغ فاستأثر باهتمام الاستاذ ولم يغادر سامراء حتى وفاة الشيرازي عام ١٨٩٦م.

وفي سامراء بدأ اول نشاط سياسي للشيخ النائيني من خلال استجابته للوساطة، حول امر ما، بين السيد جمال الدين والميرزا محمد حسن الشيرازي، وتوسطه بين الاثنين في نقل بعض الرسائل.

ومفاد تلك الاحداث ان السيد جمال الدين بدأ يحرض العلماء والجماهير

المشروع الاحيائي لجمال الدين، مجلة التوحيد، العدد ٨٩، ص ٢٢.

ضد الشاه، وفي سياق تلك الاحداث توجه الى سامراء فحط رحاله عند النائيني، وطلب اليه ان يلتقي الميرزا محمد حسن الشيرازي على انفراد لمدة نصف ساعة. فاعتذر الآخير عن ذلك ووعد السيد خيراً. وجاء في اعتذار الميرزا الشيرازي ـ كما نقل النائيني ـ انه لا يستطيع ان يستجيب لكل تطلعات السيد جمال الدين. لكنه وعد بمساعدته بقدر مناسب[٨].

ان متانة العلاقة بين النائيني والسيد جمال الدين (على مستوى المراسلة بينهما، وزيارة السيد جمال الدين لمقر اقامة النائيني في سامراء)[٩] تكشف عن وجود قواسم مشتركة في قناعاتهما الفكرية والثقافية وتؤكد توحدهما على هدف مشترك هو محاربة الاستبداد. فاستجابة النائيني للسفارة بين السيد جمال الدين والميرزا الشيرازي تأتي في سياق تنشيط التحرك المضاد لاستبداد الشاه، الذي عاشاه معاً. وربما لم يتوقف دور النائيني هنا بل ان الاحداث المتلاحقة بعد ذلك التاريخ تشي بوجود دور خفي له[١٠]، لاسيما في صدور فتوى تحريم التبغ (التنباكو)، من قبل السيد محمد حسن الشيرازي عام ١٨٩٠م. ومالعبته تلك الادوار في تفجير ثورة شعبية عمت جميع ايران

---

(٨) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٩) المصدر نفسه، من الممكن ان يكون السيد جمال الدين قد اتخذ من الشيخ النائيني وسيطاً لنقل الرسالة الى السيد الشيرازي لقرب النائيني من السيد الشيرازي.

وانظر: حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٥٥.

(١٠) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٥٥. الفقيه والسلطان، مصدر سابق، ص ١٧٦.

وارغمت ناصر الدين شاه على التراجع عـن اتـفاقية امـتياز بـيع التـبغ الى الشركات الاجنبية.

ثمة حقيقة هي ان العلاقة بين الطرفين (اياً كان حجمها وطبيعتها) ساهمت في صياغة عقل النائيني ودخلت عاملاً اساساً في تشكيل شخصيته، وانتجت مواقف سياسية متواصلة، فشارك النائيني فـي الحـركة الدسـتورية وحـركة الجهاد في شمال ايران وثورة العشرين والاستقلال في العراق. بل ان فاعليته في هذا الاتجاه ساقته للتنظير للحركة الدستورية وتأصيل نظرية اسلامية في الحكم والسياسة صدرت في كتابه (تنبيه الامة وتنزيه الملة).

في مدينة النجف

بعد وفاة السيد محمد حسن الشيرازي قفل النائيني راجـعاً مـن سـامراء قاصداً كربلاء عام ١٨٩٦م، اي بعد وفاة استاذه بسنتين، وبعد كـربلاء حـط رحاله في مقره الأخير في مدينة النجف، مركز الحوزة العلمية، فانضم حـال وصوله الى درس الآخوند كاظم الخراساني، الذي اسـتقطب درسـه صـفوة العلماء آنذاك.

وفي النجف بدأ الشيخ النائيني نشاطه السياسي الفعلي من خلال مشاركته في توجيه الحركة الدستورية في ايران.

دوافع الحركة الدستورية

لا يمكن ان نقدم تفسيراً صحيحاً لدوافع الحركة الدسـتورية وتـحولاتها السياسية مالم نضعها في اطارها التاريخي ونكشف عن السياقات التي افضت اليها. وهذا يتطلب عودة الى الوراء تسمح بقراءة الاحداث التي سبقت التحرك

الشعبي الواسع وافضت الى اقرار الدستور.

لقد توالى على الحكم في ايران عدد من ملوك الدولة القاجارية عرفوا بالاستبداد والتهور والاسراف بالملذات والاكثار من السفر خارج البلاد. فانهكت تلك الممارسات خزينة الدولة مما اضطر هؤلاء الملوك الى اعتماد القروض الخارجية لسد العجز الحاصل في ميزانيتها. وفي كل مرة تقدم فيها الدول الاوربية او روسيا قرضاً الى ايران تفرض عليه شروطاً تجارية او تطالب بتسهيلات كمركية او امتيازات كبيرة لصالح الشركات الاجنبية، وكان الشاه يستجيب لكل تلك الالتزامات حتى اثقلت الدولة بالديون المتراكمة عبر السياسة الاقتصادية الخاطئة[١١].

فتفاقم الوضع الاقتصادي الى حد انذر بسقوط الدولة القاجارية بين حين وآخر. وحينما نضيف الى العامل الاقتصادي التعسف السلطاني والاستبداد في السلطة واضطهاد الحريات واخماد الدعوات الاصلاحية الداعية لتشكيل المجالس النيابية ووضع دستور عام للبلاد يقيّد صلاحيات الملك، سنعي حينئذٍ عوامل انبثاق الحركة الدستورية جيداً.

بداية التحرك

في ظل تفاقم الحالة الاقتصادية والامنية اصبح الشارع الايراني مرشحاً للانفجار في كل وقت، وباتت السيطرة عليه صعبة للغاية، لاسيما وان هناك جهوداً حثيثة للسيد جمال الدين وغيره باتجاه الثورة ضد الشاه، ففي كل يوم نجد الخطباء والصحف تطل على الجماهير بخطاب تحريضي يؤجج الوضع

---

(١١) كوثراني، الفقيه والسلطان، مصدر سابق، ص ١٨٠.

القائم ويصعد الموقف ضد الحكم القاجاري[١٢]. فأول بوادر الرفض للاستبداد القائم تجلى في ثورة التبغ (التنباكو)، ثم تلتها حادثة اغتيال الشاه ناصر الدين عام ١٨٩٦م، فاعتلى العرش مظفر الدين شاه، وكان على سر ابيه مولعاً بالسفر الى اوربا حتى اضطر للاقتراض من روسيا لتغطية نفقات سياحته وتجواله في البلدان الاوربية، ولسد العجز الشديد الحاصل في ميزانية الدولة، مع الانخفاض الحاد في عائدات البلاد.

ومما صعّد الموقف اكثر هو ان الشاه خوّل شؤون الحكم الى صهره (عين الدولة). وكان هذا الاخير مكروهاً لدى الشعب الايراني لشدة جهله وتعسفه، فاخذ يتمادى في ممارساته العدوانية ضد الشعب، فكان احد اسباب التوتر في علاقة الدولة مع رجال السوق (البازار).

والبازار كان احدى القوى الثلاثة المسيطرة على الساحة الايرانية، لامتلاكه الاموال، وقدرته على شل الحياة الاقتصادية فيما اذا قرر اغلاق محلاته، وعلاقته القوية بعلماء الدين. وكان رجال البازار ساخطين على الشاه بسبب الامتيازات الكبيرة التي منحها لروسيا مقابل قرض مالي كان مضطراً اليه ـ كما المحنا لذلك ـ والتي اضرت بالسوق الايرانية كثيراً، فظل رجال البازار يتحينون الفرصة المناسبة لينقضوا على الشاه وحكمه [١٣].

وقد حانت الفرصة المناسبة عندما تعرض بعض رجال البازار للضرب من قبل رجال الشرطة عام ١٩٠٥م، لمخالفتهم بعض الاوامر الحكومية، فاستشاط رجال البازار غضباً وانضم اليهم عدد من علماء الدين ومجموعة

---

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٨١.

(١٣) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٠٦.

من الشعب، والتجأ الجميع الى مسجد الشاه قرب البازار ليعلنوا عن استنكارهم لماوقع على يد اعوان السلطة، غير ان امام المسجد، المتواطئ مع السلطة، اخرجهم من المسجد، فالتجأوا الى مرقد الشاه عبد العظيم في منطقة الري قريباً من طهران، وهو مرقد مقدس لدى الناس. حيث انضم الى المعتصمين عدد كبير من الاهالي وعلماء الدين، كان من بينهم السيد محمد الطباطبائي والسيد عبد الله البهبهاني. وخلال وجود المتظاهرين في مسجد شاه عبد العظيم استغل الخطباء فرصة التشهير بالملك وحكومته التعسفية، وكان للميرزا نصر الله المعروف بملك المتكلمين (خطيب الثورة) والواعظ المشهور السيد جمال الدين دور كبير في هذا الصدد.

«واما بالنسبة لكبار العلماء فانه ينبغي التمييز بين علماء المؤسسة الدينية الرسمية المعينة من قبل السلطان، وعلماء الحوزات العلمية في قم وغيرها من المراكز. فالمؤسسة التي ضمت شيوخ الاسلام وائمة الجمعة، وقفت ضد الحركة الدستورية وايدت الشاه في كل شيء، حتى ان بعضهم اصدر احكام التكفير والتفسيق ضد المطالبين بالدستور. اما في جانب الفئة الثانية فقد برز فيها فقهاء كالسيد عبد الله البهبهاني والسيد محمد الطباطبائي، وقفوا بحزم مع الثورة الدستورية، الا ان الوقفة التي كان لها تأثيرها الكبير في اتساع نطاق الثورة وانجاحها جاءت من مراجع النجف ولاسيما من الشيخين المجتهدين: الملا كاظم الخراساني والشيخ عبد الله المازندراني. ومن مجموعة من العلماء أبرزهم الشيخ حسين النائيني»[١٤].

ولما خاف الشاه تفاقم الموقف واشتداد الازمة بينه وبين علماء الدين

(١٤) كوثراني، الفقيه والسلطان، مصدر سابق، ص ١٨٢.

المعتصمين في مرقد شاه عبد العظيم الحسني، ارسل رسوله الخاص بغية العدول عن الاضراب الجماهيري، الا ان المعتصمين جفوا الرسول وارجعوه خائباً، مما اضطر الشاه ان يستجيب لمطالبهم عبر تعهد خطي مكتوب بخط يده، فوافقوا على العودة الى طهران فاستقبلتهم الجماهير استقبالاً حافلاً. وكان الموكب المنتصر يسير في شوارع طهران، وقد ركب وجهاؤه عربات ملكية كان الشاه قد ارسلها تكريماً لهم[١٥].

وهذا الحدث بالذات رفع من شأن السيدين، الطباطبائي والمازندراني، وعمق ثقة الجماهير بعلماء الدين الواعين اكثر. لان الجماهير تميز بين العالم الواعي الشجاع وفقيه السلطان المتواطئ مع الشاه، الذي رفض استقبالهم في مسجد الشاه الكبير قرب البازار. فالاخير لايمكن ان يكون قائداً للامة، مادامت القيادة تشترط التضحية والفداء والوعي الثاقب، وتطالب بتنازل عن الانا لصالح الجماهير، وامتلاك القدرة على التمييز بين الدين وغيره من مظاهر التلبس بالدين. لذلك انضمت الجماهير الى من يتقدم المسيرة من العلماء الواعين، الذين لايستبطنون النزعة الاستبدادية القائمة على اضطهاد الآخر وقمعه ومصادرة حقه في التعبير عن رأيه بحرية كاملة.

تفاقم الازمة

لم يدم الوضع طويلاً، لتخلف الشاه عن الوفاء بالتزاماته، ولم تجر اي اصلاحات حقيقية خلال تلك الفترة، لان الشاه كان واقعاً تحت تأثير صهره عين الدولة، الموتور من الجماهير.

---

(١٥) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ص ١٠٨.

والذي عمق الازمة واثار سخط الناس من جديد هو استفراد عين الدولة بالسلطة على اثر اصابة الشاه بالشلل، حيث اخذ يمارس الاضـطهاد عـلناً، واصدر اوامره بالقاء القبض على السيد محمد الطباطبائي، فتصاعدت حـدة المواجهات بين الشرطة وافراد الشعب، واشتد الموقف حتى خرج العلماء من طهران الى قم احتجاجاً على الوضع السائد، وتعاطف البازار مع الحدث فاغلق محلاته. ومن ثم اصدر العلماء بياناً هددوا فيه بالخروج من ايران الى النجف اذا لم يوضع حد للتصرفات الطائشة.

وتفاقمت الازمة واصيب الناس بـالذعر فـالتجأ بـعضهم الى المسـاجد وآخرون التجأوا الى السفارة البريطانية، ونصبوا الخيام في الباحة الخارجية للسفارة، واعلنوا عن عدم رجوعهم حتى تسوّى الاوضاع لصالح الشعب[16].

وهنا حاول السيد هبة الدين الشهرستاني قراءة الحدث الاخير منقطعاً عن سياقه التاريخي. فقال: ان التجاء التجار الى المفوضية البريطانية احدث فيهم تطوراً فكرياً ووعياً سياسياً جديداً، فهم كانوا قبلئذٍ يطالبون بتأسيس مجلس الـ «عدالت خانه» ولكن زوجة المفوض البريطاني اخذت تفهمهم بأن طلبهم هذا لاقيمة له وان هدفهم يجب ان يكون اوسع من ذلك واهم، وهو الحـرية والمساواة والشورى. وقد كانت تلك السيدة مثقفة فاستطاعت ان تحدث فيهم التأثير المطلوب»[17].

والحقيقة ان تلك الاهداف وان كـانت انسـانية الا ان خـطاب المـفوض البريطاني ليس منقطعاً عن سياقه التاريخي، اي قضية الصراع بين بـريطانيا

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(١٧) الخاقاني، شعراء الغري، مصدر سابق، ص ٨٥.

وروسيا على مناطق النفوذ الايراني. فروسيا كانت تشجع الشعب الايراني ضد البريطانيين في ثورة التنباكو، فاراد هؤلاء ان يثأروا لانفسهم في الحركة الدستورية. والا فبريطانيا تعلم جيداً ان انتصار الحركة الدستورية سيضر بمصالحها، وان اهداف تلك الحركة تتقاطع مع سياستها المتبعة في المستعمرات البريطانية. لذا سيبقى الحدث في سياقه التاريخي. وسيكون الخطاب حينئذٍ تحريضاً تعبوياً وليس مجرد خطاب تثقيفي غير مؤدلج.

المُجلس النيابي

واخيراً رضخ مظفر الدين شاه لمطالب العلماء والجماهير والبازار فعزل عين الدولة ونصب خلفه رجلاً من انصار المشروطة، هو «نصر الله خان»، كما استطاع الشعب الايراني ان يفرض على الشاه دستوراً يقره مجلس نيابي منتخب من قبل الشعب. وقد اطلق على المجلس البرلماني الذي افتتح في تشرين الاول عام ١٩٠٦م، اسم «المجلس الشوروي الملي». وقد حضر حفل الافتتاح مظفر الدين شاه رغم شدة مرضه، ثم انبثقت عن المجلس لجنة اعداد مسودة الدستور، وبعد صياغة مواده قانونياً تمت الموافقة عليه سنة ١٩٠٧م.

وقد حقق الدستور طموح الشعب، وحد من صلاحيات الشاه، وفرض الدين الاسلامي ديناً للدولة، والمذهب الامامي الاثني عشري مذهباً رسمياً. كما تقرر ان لايصدر عن المجلس قانون مخالف للشريعة الاسلامية[١٨]. وكانت معظم مواد الدستور مستمدة من الدستور البلجيكي الصادر عام ١٨٣٠[١٩].

---

(١٨) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٣، ص ١١٢.

(١٩) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٣، ص ١١٢.

لكن الحياة الدستورية لم تدم طويلاً، بل اخذت تتراجع بعد ممات الشاه مظفر الدين ومجيء ولده محمد علي. وكان هذا الاخير سيّئ الصيت لقسوته. وكان يكيد للمجلس منذ وطئت قدماه عرش البلاد. وسعى لتعميق الخلاف بين انصار المشروطة والمستبدة.

والمستبدة (او اللادستورية): تعنى الغاء الدستور والمجلس النيابي، وابقاء السلطان مطلق الارادة في الحكم، على ان يلتزم بالشريعة الاسلامية، في مقابل المشروطة (او الدستورية): التي تعني تقييد صلاحيات الشاه المطلقة، ومنع الاستبداد من خلال دستور يحظى بتأييد مجلس برلماني منتخب عن طريق الشعب.

لكن الازمة تفاقمت، وساد التذمر ارجاء البلاد، وازداد الاستياء من الحكومة الجديدة، واصبح الوضع مهياً للانفجار في اي لحظة، لاسيما بعد ان عقد الشاه المعاهدة الروسية البريطانية، حيث اقتسمت الدولتان النفوذ في ايران، فحصلت روسيا القسم الشمالي الذي يشمل العاصمة طهران ومناطق ايران الشمالية فوقعت تحت النفوذ الروسي، بينما وقعت المناطق الجنوبية منه تحت نفوذ السيطرة البريطانية، حينئذٍ استأسد الشاه على الشعب وصار يدير دفة الحكم بطريقة تعسفية ومستبدة، واحاط به مستشارون روس، واتكأ على القوة الروسية لضرب انصار المشروطة وتعطيل الدستور.

واخذ الشاه يستقطب بعض المؤيدين من ابناء الشعب عن طريق بذل الاموال السخية، كما رفع شعار مخالفة الدستور للشريعة الاسلامية فانطلى ذلك على بعض البسطاء من الناس. لكن الكارثة حلت عندما انحاز الشيخ فضل الله النوري، وهو مجتهد معروف وكان من انصار الدستور، انحاز الى تأييد الشعار المرفوع ثم تبناه علناً واخذ يقود تيار مايسمى بـ(المستبدة) في

مقابل تيار (المشروطة) الذي يقوده في طـهران السـيد مـحمد الطـباطبائي، والسيد عبد الله البهبهاني[٢٠]. وكان كل تيار يتحرك من منطلق الشـرعية ولا يشعر بالتقصير تجاه الطرف الآخر.

وامتد الخلاف ليشمل جميع المدن الايرانية، وصار كل طرف من الاطراف المتناحرة يكفّر الآخر. واخذ الصراع يزداد حدة بين الشاه والمجلس النيابي، فقرر الاخير ضرب انصار المشروطة، عندما اعلن الاحكام العرفية، ثم طوق المجلس بقوات روسية بقيادة الكولونيل لياخوف ، الذي قصف بناية المجلس بقذائف المدفعية، منهياً بذلك الحياة الدستورية في البلاد.

واخذت قوات الامن تطارد تيار الاصلاح وتلقي القبض على رجاله، كما صدرت احكام الاعدام بحق بعض الشخصيات كملك المـتكلمين خـطيب الثورة، والميرزا جهانكيرخان صاحب جريدة صور اسرافيل[٢١].

دور علماء النجف في الحركة الدستورية

ليست النجف بمنأى عما يحدث في ايران، بل انها كـانت تـمد الشـارع الايراني بالزخم الثوري عبر فتوى وخـطابات المـجتهدين الكـبار المـفعمة بالشرعية، فيمتثل الشعب اوامر علماء الدين دون تردد او خوف.

وكانت النجف آنذاك يتقاسمها شخصيتان علميتان هما الآخـوند كـاظم الخراساني، وكان مجتهداً بارزاً عـلمياً. والى جـواره السـيد كـاظم اليـزدي الذي امتد الى الامة عبر مرجعيته الدينية للـطائفة، وكـان النـاس مـوزعين

---

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٢١) المصدر نفسه.

على كليهما.

كانت المشروطة في اول الامر تحظى بتأييد كلا المرجعين، وكان جواب جميع العلماء ان المشروطة موافقة للشريعة الاسلامية. لكن حينما دب الخلاف في طهران امتد الى النجف ليشطر الساحة الى شقين. احدهما مندفع في تأييد المشروطة، يقوده الاخوند كاظم الخراساني مع لفيف كبير من المجتهدين واصحاب المقامات العلمية، امثال السيد عبد الله المازندراني، والشيخ محمد حسين النائيني، والسيد هبة الدين الشهرستاني، وآخرين.

واما تيار المحافظين المؤيدين للمستبدة (باصطلاح عامة الناس، او المشروطة المشروعة كما هو الواقع) فقد تزعمه السيد كاظم اليزدي. وقد اشتد النزاع وطال الجدال بين الطرفين حتى انسحب ذلك على الشارع العراقي[٢٢].

وكان بداية التحرك في النجف اثر رسالة وردت من ايران تستفتي العلماء حول المشروطة والمجلس، ومدى موافقتهما للشريعة الاسلامية. فاجاب الاخوند الخراساني عليها كما يلي:

«جواب الاستفتاء: هذا ما قرره المجتهدون الاعلام: بسمه تعالى وبه نستعين. بسم الله الرحمن الرحيم: صلى الله على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على القوم الظالمين الى يوم القيامة. اما بعد. فبالتأكيدات الالهية والمراحم السماوية وتحت توجيهات الهادي العالي الشأن حضرة صاحب الزمان (ارواحنا فداه) ان قوانين المجلس المذكور على الشكل الذي ذكرتموه هي

---

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١١٥.

قوانين مقدسة ومحترمة، وهي فرض على جميع المسلمين ان يقبلوا هذه القوانين وينفذوها. وعليه نكرر قولنا: ان الاقدام على مقاومة المجلس العالي بمنزلة الاقدام على مقاومة احكام الدين الحنيف، فواجب المسلمين ان يقفوا دون اي حركة ضد المجلس.

التوقيع: كاظم الخراساني

وقد وقع الرسالة عدد من كبار علماء النجف (باستثناء السيد كاظم اليزدي) وهم: محمد تقي الشيرازي، عبد الله المازندراني، حسين الشيخ خليل، شيخ الشريعة، السيد مصطفى الكاشاني، السيد علي الداماد، عبد الهادي شليلة، حسين النائيني، محمد حسين القمشي، مصطفى النقشواني»[٢٣].

ظل الآخوند الخراساني وفياً للمشروطة فتواصل مع دعاتها ودعم مؤيديها ورمى بثقله الى جانبها. وظل يحرض ضد الشاه ودعاة الاستبداد.

ففي جواب على رسالة من اهالي تبريز، قال: «وصلتنا برقيتكم التي تشكون فيها من الخونة اعداء الحرية وقد اسفنا كثيراً لهذا الخبر. واننا على يقين ان هؤلاء الاشخاص غير مأذونين من قبل الشاه في اعمالهم هذه، لان الامة اليوم متحدة الكلمة على وجوب افتتاح المجلس، ولان هذا المجلس يساعد على محو الاستبداد وازالة العادات الرذيلة ونشر القانون في البلاد.

وهكذا فان المجلس يسند المذهب الجعفري الشريف ويحافظ على اخبار الائمة.

والخلاصة: المسلمون ملزمون ان يتبعوا الاصول الجديدة في الحكم. وعلى الشاه ان يبادر لاتمام هذا الامر بطرد الخائنين واعداء المجلس

---

(٢٣) كمال الدين، محمد علي، التطور الفكري في العراق، بغداد، ١٩٦٠، ص ٧٠.

المحترم؛ لأن ذلك من وظائفه الخاصة.

كاظم الخراساني[24].

فالكتاب يؤكد وعي الآخوند الخراساني بالمشكلة الاجتماعية والسياسية وقدرته على تشخيص نقاط ضعفها. فعندما يصر على افتتاح المجلس النيابي؛ لأنه يريد ان يحطم بذلك عرى الاستبداد، باعتبار ان عقدة التخلف ـ كما يفهمها الآخوند ـ تكمن في الاستبداد، وان التطور الحضاري يتوقف على محو الاستبداد اولاً. كما تترتب على ازالة الاستبداد نتائج مهمة، كحفظ الشريعة، ورسالة الدين، والمحافظة على كرامة الناس وعزتهم.

فاندفاع الآخوند باتجاه المشروطة والاصلاح السياسي كان عن وعي كامل، وينطلق من مرجعية قد استكملت منظومتها المعرفية، وباتت تتجسد عبر مواقف جريئة وشجاعة، واجه فيها الشاه محمد علي. وهذا نموذج لكتاب ارسله الآخوند يحذر فيه الشاه من محاولة الغاء الدستور، ويفضح نواياه تجاه المشروطة:

«يا منكر الدين ويا ايها الضال، والذي لا نستطيع ان نخاطبك بلقب شاه. كان المرحوم ابوك قد اعطى الدستور ليرفع الظلم والتصرفات غير القانونية عن الشعب الذي كان في ظلام دامس قروناً عديدة، حيث انه لا يوجد في المشروطة شيء يخالف الدين. وكنا ننتظر شجرة الدستور ان تثمر السعادة للشعب المظلوم، وان يحفظ هذا الدستور بعد جلوسك على العرش، وعلى هذا الاساس اعترفنا لك بولاية العهد الدستورية. ولكنك منذ اليوم الاول الذي تبوأت فيه عرش السلطة وضعت تحت اقدامك جميع الوعود والايمان

---

(٢٤) الاسدي، حسن، ثورة النجف ضد الانجليز، بغداد، ١٩٧٤، ص ٢٤.

وعملت بجميع الحيل ضد المشروطة. وقد تجلى خطؤنا فيك، حيث سعيت ان تجعلنا آلة بيدك ضد المجلس، وحاولت ان ترشونا بقانون اساس تافه نظمته انت والذي كان فيه ضرر للناس، واردت ان نصادق عليه، وارسلت الينا احد رجالك المقربين لشراء ذممنا بالذهب، ولست عالماً بأن سعادة الشعب اثمن كثيراً من ذهبك. اننا نظن ان البيان الذي نشرته لإحباط مساعي المشروطة كان بتأثير الاجانب، وكان كاتبه احد المجتهدين المعادين للاسلام، فقد باع دينه وايمانه ووجدانه بالمال. فهو من اتباع الشيطان، وان تذرّع بالدين والشريعة. ونحن بأمر الله وارادة الشعب، وباسم الشيعة المدافعين عن كرامتهم، نقول له: ان ذكرك للدين والشريعة كذب وهراء، اردت بهما اغفال البسطاء المتمسكين بالدين لتمنع الدستور، وتجعل الناس في ذل وفقر. فعلى هذا أنت عدو للدين المقدس وخائن للوطن، وتشبه السارق الذي يسرق الناس باسم الدين والشريعة.

واما انت ايها الضال، فاننا نحن الروحانيين نبلغك ونطلب اليك ان تنظر بدقة وان تفكر صادقاً بسعادة الشعب، والا فسوف يرميك الشعب بالخيانة ويعمل المنكر ويلعنك الى الابد.

اعمل معروفاً ولو مرة في حياتك، بأن تعطي الحرية للشعب المظلوم انك انت ومعك المجتهدون المرتزقة، عندما تدعون مخالفة المشروطة للشرع الشريف انما تتجاهلون الحقيقة الدينية الاساس، التي تقضي بأن تكون العدالة واجبة حتى في الجزئية، ونحن نقول بكل صراحة، ليس في المشروطة أية نقطة تخالف الدين الاسلامي، بل انها تتفق مع احكام الدين واوامر الانبياء بخصوص العدالة ورفع الظلم عن الناس. فاترك سند الشيطان وانشر بياناً آخر فيه حرية للناس. واذا حصل تأخر منك عما نطلب، فاننا سوف نحضر جميعاً

الى ايران ونعلن الجهاد ضدك، فلنا في ايران اتباع كثيرون، والمسلمون كثيرون ايضاً. اننا اقسمنا على ذلك.

كاظم الخراساني [25]

النائيني والحركة الدستورية

واكب الشيخ النائيني احداث الحركة الدستورية من مقر اقامته في النجف، وعاش امتداداتها على جميع الاصعدة، فلم تختلط لديه الاوراق رغم ضبابية الموقف وتشابكه، حيث ساعده وعيه المبكر على تشخيص الموقف الصحيح، وازالة الالتباس المتمخض عن شرعية كلا التيارين المتصارعين. فتبدو الحقيقة غامضة لغير الواعين من الناس لاسيما مع وجود اكثر من عالم ومجتهد على رأس كل تيار. لكن الشيخ النائيني انحاز صوب الاخوند الخراساني ليكون ساعده في ادارة عمليات المعركة القائمة في ايران، والتي القت بظلالها على مدينة النجف في العراق، وقد احتمل بعض الباحثين قوياً ان المراد من (محمد) الوارد اسمه في عدد من الوثائق التاريخية كسكرتير للاخوند الخراساني ومحرر بيانات الثورة، هو الشيخ محمد حسين النائيني [26]، الذي كان ملتصقاً بالاخوند الخراساني ومن مستشاريه في احداث الحركة الدستورية، وكان احد اعضاء الوفد الذي ارسله علماء النجف لاجراء محادثات مع السفير البريطاني في بغداد حول اوضاع الحركة الدستورية [27]. وكان نشطاً فيها الى الحد الذي اثار حنق اعدائه من انصار المستبدة.

---

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٢٦) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٥٦.

(٢٧) الطهراني، آقابزرك، طبقات اعلام الشيعة، ج ١، ص ٥٩٤.

جاء ذلك في رسالة للسيد عبد الله المازندراني، كتبها في ٦ سبتمر ١٩١٠م ـ رمضان / ١٣٢٨ هـ، شكى فيها من الجمعيات السرية المتكونة من (الملحدين المعاندين)، وشكى ايضاً من الافراد المرتبطين بالاجانب الروس. واكد ان هدف هؤلاء هو محو الاسلام والغاء استقلال ايران. ويتمركز هؤلاء في مدينة النجف، وكان عدوهم الاول المازندراني والخراساني ومن ثم النائيني، لكن عداءهم وحسدهم كان اشد للنائيني بشكل خاص.

فاستنقذت جريدة (حبل المتين) الموقف ودعت الايرانيين الى اليقظة والحذر، وعدم الاستماع لما تبثه الجمعيات السرية المعادية عن النائيني المعروف بنشاطه وولائه الكامل للمشروطة[٢٨].

وظل الشيخ النائيني وفياً لاهداف الثورة، متواصلاً معها حتى اشواطها الاخيرة. فالمشروطة كانت تمثل مشروعاً سياسياً لعلماء الشيعة في مقابل المشروع الاستبدادي القائم. فليس دعم المشروطة مجرد موقف تكتيكي يستنفد اغراضه بتحقيق الاهداف المرسومة له، وانما هو مشروع واضح المعالم، قد نظّر له الشيخ النائيني بقوة ـ كما سيأتي في الفصل الثالث من الكتاب. فالحركة الدستورية تعد نقلة نوعية في التفكير السياسي الشيعي ليس لها مثيل، ونقطة انطلاق احدثت منعطفاً تاريخياً في الحياة السياسية. فمن يراجع كتاب النائيني يلاحظ صراحة الكاتب وجرأته عندما يتعرض لحل الاشكالات الراهنة في عقل الفرد المسلم، الذي يعاني تراكمات حقبة طويلة من الاستبداد، عاشها في ظل حكومات تسحق الانسان وترفض حقه في التعبير عن رأيه، وتتجاهل وجهة نظره تجاه الاحداث والتطورات التي تعصف

---

(٢٨) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٥٦.

بالساحة السياسية الاسلامية. ولاول مرة يبصر الانسان النور من خلال هذا الكتاب، فيشاهد دوره واضحاً في تقرير مصيره. وهي حالة لم يسبق لها مثيل باستثناء بعض مشاهد الخلافة الراشدة.

الثورة مجدداً

ما ان تسرب خبر ضرب المجلس حتى عمت الاضطرابات جميع البلاد، وتعالت الصيحات ضد الشاه، وتعبأ الشعب لمواجهة التحديات، وصمم على خلع الشاه المستبد رغم الصعوبات.

اول تحرك بدأ في تبريز بقيادة ستار خان، الذي اعلن حمايته للمشروطة ورفضه للاستبداد، فاضطرت الحكومة لمحاصرة تبريز، وبعد عشرة اشهر من الحصار المرير تمكن الثوار من فك الحصار والتحرك باتجاه طهران.

ورافق حركة اهالي تبريز تمرد واسع في كيلان قاده احد إقطاعيّي منطقة (تنكابن)، الـ(سبهدار اعظم) ولي خان تنكابني، وهو رجل وصولي، كان مناصراً قوياً للاستبداد، الا انه مال لحماية الحركة الدستورية رضوخاً لارادة الجماهير، كما انها فرصة جيدة لاستباق الاحداث والتسلق الى الحكم من جديد، في خطوة لاحقة لتحقيق مآربه واطماعه.

ولما ترامت اصداء الحركتين (حركة تبريز وكيلان) الى اسماع اهالي اصفهان دبت حركة جماهيرية قادها الـ(سردار) اسعد بختياري. وكان اسعد يدرس في فرنسا، ويصنف على طبقة المثقفين، وحينما سمع بانباء التحرك عاد من توه الى اصفهان ليقود الحركة الشعبية.

لقد زحفت التيارات الثلاثة صوب طهران وطوقتها، وحاول جنود الحرس الملكي عبثاً ان يصدوا الهجوم الكاسح لكنهم فشلوا في ذلك بعد مقاومة دامت يومين.

ودخل جنود الثورة العاصمة طهران وسيطروا على مقاليد الامور فيه. وذلك في ١٢/تموز/ ١٩٠٩م. فهرب الشاه لاجئاً الى السفارة الروسية، واعلن الثوار عزله وتتويج ابنه احمد، البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة[٢٩].

الاستعمار والحركة الدستورية

رغم شدة الصراع على مناطق النفوذ في ايران بين روسيا وبريطانيا، الا ان كلتا الدولتين تعلمان جيداً ان استتباب الحركة الدستورية وسيطرة العلماء الواعين من ابناء الشعب على المجلس النيابي ومن ثم التحكم بمفاصل الدولة المهمة يعني انهاء المصالح الاستعمارية في ايران. فحاول كلا الطرفين الحيلولة دون حدوث اضطرابات واسعة تنهي حكم الشاه محمد علي، الا انها اخفقت تحت ارادة الامة واصرارها على اسقاط الشاه، فسارعتا للتسلل الى حريم الثورة عبر عناصر موالية للاستعمار، كان في مقدمتهم السردار اسعد البختياري والاقطاعي (سبهدار اعظم) محمد ولي خان تنكابني. ثم توالى الاختراق الاجنبي تحت غطاء الولاء الوطني، فدخل المجلس مجموعة من المثقفين المتغربين، وعدد آخر من العلمانيين فحرفوا الحركة عن مسارها الذي قاتلت من اجله الامة وعلماؤها[٣٠].

اخطاء الحركة الدستورية

١ ـ استحواذ بعض الشخصيات الاقطاعية على قيادة الحركة، كما هو الحال بالنسبة لتحرك اهالي كيلان بقيادة محمد ولي خان تنكابني، وهو من

---

(٢٩) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج٣، ص ١١٥.

(٣٠) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٥٨.

الاقطاعيين الجشعين المتهمين، الذين لا تهمهم مصالح الشعب وارادة الامة، وانما يقتاتون على سحق الطبقات المستضعفة، ويعيشون على جهود الآخرين، ويستغلون دماءهم الطاهرة ونياتهم الطيبة لحماية مصالحهم والدفاع عن سيادتهم.

فالتنكابني يستبطن الروح الاقطاعية المتعالية، ولا يتخلى عن مصالحه الشخصية وان تظاهر بالولاء للحركة الدستورية. وانما تولى قيادتها ليتخلص من محكمة الجماهير الغاضبة، ويحافظ على مصالحه مستقبلاً. فهو بهذا الخداع احكم السيطرة على تذمر الامة بطريقة ملتوية، واجّل المواجهة معها الى فرصة اخرى.

وكان ينبغي ان لا ينخدع اهالي كيلان بذلك غير ان سطحية وعي الجماهيري ساهم في تمرير المؤامرة بسلام. وهذا لا يعني ان الامة كانت تفتقر الى وعي الوضع السياسي الراهن في البلاد او لا تعي خطورة استمرار الشاه محمد علي في السلطة، غير ان وعيها قاصر عن تشخيص الموقف الصحيح من هؤلاء الرجال المندسين، او ان الامة كانت تتشبث بأي وسيلة لإسقاط الشاه.

لذا ينبغي على الامة ورجالها وهي تخطو خطوات اصلاحية وتدعو الى التجديد ان تكون يقظة بمستوى لا تسمح لذوي الـ(انا) العميقة بالتصدي لشؤونها، مهما بالغ الآخرون بالتأكيد على مصالحها ومستقبلها؛ لأن هؤلاء سيسرقون جهودها باسم الدين او باسم الوطنية او تحت اي لافتة براقة اخرى.

٢ ـ تسلل المثقفين المتغربين وجملة من العلمانيين الى المجلس النيابي وبعض مرافق الدولة المهمة، كالسردار اسعد بختياري، وهو ـ كما المحنا ـ رجل عاش حياته التعليمية في فرنسا.

او تصديهم للشأن الثقافي اضافة الى ماسبق كتقي زاده وملكم خان وطالب اوف...وغيرهم.

والمتغربون تطاردهم ـ عادة ـ عقدة الغرب، والشعور بالدونية، والانسحاق امام الحضارة الاخرى، فتراهم يدعون دائماً الى التخلي عن التراث ويحاربون الدين ويصرون على علمانية الدولة، وبعضهم يتمادى فيتبنى فكرة التخلي عن كل مايمت بصلة الى حضارته ووطنه، ويدعو من دون مواربة للحاق بالغرب متخلياً عن تراثه وتقاليده واصالته. وهو يرضى ان يكون (الآخر) في مقابل الغرب الذي يصف نفسه بالذات والمركز، ويتعالى عليه من هذا المنطلق، ويصر على سحقه وتهميشه.

لقد كان لطبقة المثقفين المتغربين او الـ(روشن فكر = المثقف المتنور) في ايران دور سلبي مما حدى بجلال آل احمد (الكاتب الايراني المعروف) ان يكتب اكثر من كتاب يفضح فيه المثقفين المتغربين ككتاب: (غرب زدكي = التغرب) وكتاب: (خدمات المثقفين وخياناتهم).

ومن المؤاخذات المسجلة على هؤلاء هو سرعة التواطؤ مع الغرب ضد مصالح الامة، وهذا ماسنشير له آتياً.

٣ ـ اطلاق صراح الشاه محمد علي والسماح له بمغادرة ايران دون ان ينال جزاء محكمة الشعب العادلة. وذلك نزولاً عند رغبة روسيا، التي ارادت ان تستبعد الشاه على امل العودة الى السلطة ثانية، لما بينهم من صلات حميمة، قد تقدمت الاشارة اليها. فالموقف الصحيح هو ان يقدم الشاه لمحكمة تقتص من جرائمه الكبيرة وتنتصر للعدالة والحق المستلب.

٤ ـ تنصيب الشاه احمد الذي لم يبلغ الحلم. وهي نقطة ضعف لامثيل لها. فعقدة السلالات البشرية المتفوقة تكمن في اللاشعور عند بعض الشعوب.

فهناك من يعتقد باصالة بعض السلالات الملكية وحقها في ممارسة السلطة دون غيرها، وان كان الملك المنصب طفلاً صغيراً. وهي فكرة قديمة قال بها ارسطو عندما قسم الناس الى سادة وعبيد. فجعل حق الحكم والسيادة بيد السادة دون غيرهم.

فجهود الامة ودماء شهدائها راح سدًى ولصالح الاستبداد القاجاري ثانية، ولهذه الحالة شبيه في العراق، حيث قدم العراقيون آلاف الضحايا على طريق الحرية والاستقلال ولما نالوا الاستقلال قدموه على طبق من ذهب هدية لرجل لا يمت الى الوطن بصلة وهو الملك فيصل. والتوجيه المقدم لتبرير هذا الفعل (باعتبار انتماء فيصل الى السلالة الهاشمية واشتراط القرشية في الحكم على بعض مباني المذاهب الاسلامية) لا مسوّغ له.

ولم تتمكن الشعوب من استئصال حالة الانسحاق امام (العنصر المتفوق) حتى اقبر الامام الخميني الراحل هذه الفكرة والى الابد باقامة حكومة اسلامية في ايران، تنظر الى افراد الشعب نظرة واحدة، وتكون الافضلية للكفاءة المشخصة بالانتخابات العامة وليست للولاء او الانتماء لسلالة ملكية معينة.

٥ ـ طغيان حالة الفوضى على جلسات المجلس حتى اضطر الآخوند الخراساني والمازندراني ان يبرقا الى ناصر الملك (الذي كان وصياً على العرش آنذاك) عبّرا فيها عن انزعاجهما حول ممارسات انصار المشروطة وما يجري في جلسات المجلس من مهاترات كلامية. كما شكا عالمان كبيران من الرقابة على الصحف وعلمانية الشخصيات السياسية، وثقل الضرائب المفروضة على الشعب[٣١].

---

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

ولابـد ان نـذكر هـنا الى ان حـداثـة التـجربة البـرلمانية والمـمارسات الديموقراطية في البلاد كان لهما الاثر الكبير، بالاضافة الى وجود المتغربين والعلمانيين بين الاعضاء، في حدوث الفوضى داخل المجلس النيابي.

٦ ـ مقتل الشيخ فضل الله النوري. وهو من الاخطاءِ الكبيرة التي ارتكبها بعض المتهورين. حينما اقدم على محاكمة الشيخ محاكمة صورية، ارسـله بعدها الى مقصلة الاعدام.

الشيخ فضل الله النوري

كان الشيخ فضل الله النوري مـن انـصار المشـروطة وكـان الى جـانب الطباطبائي والبهبهاني فـي مـقارعة السـلطة الجـائرة، وانـضم الى العـلماء المهاجرين الى قم، وقدم اقتراحات ايجابية لضبط مسيرة الحركة الدستورية في المجلس وقد وافق عليها الآخوند الخـراسـاني، ودعـا الى (المشـروطة المشروعة) [٣٢]، اي الدستور المقيد باحكام الشريعة وفرض رقابة المجتهدين عليه مخافة الانحراف، غير ان العلمانيين اطلقوا على هذا الاتـجاه بـانصار المستبدة في محاولة لتسقيطهم وسلب الشرعية عنهم، ولم يتخلص الشيخ من تهمة المستبدة التي الصقها به انصار المشروطة حتى اعتلى اعواد المشـنقة على يد مدير الشرطة الارمني المعروف (ببرم) وعلى ملأ من الناس.

والحق ان الشيخ قاوم انحراف المشروطة، حتى اضطر للاعتصام في مرقد الشاه عبد العظيم ١٩٠٧م، استنكاراً لما حدث، وقد نـجحت تـلك الجـهود

---

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

وحقق الشيخ بعض المكاسب عندما تعهد المجلس بـان تكـون ايـران دولة اسلامية، كما اكد المجلس على عدم مخالفة المشروطة للشريعة الاسلامية[٣٣].

وفي تلك الفترة اصدر الشيخ فضل الله النوري نشرة محلية ادرج فـيها نصوص البرقيات التي وردته من السيد كاظم اليزدي والآخوند الخراسـاني، وهي وثائق تاريخية مهمة عبر فيها السادة العـلماء عـن آرائـهم بـالدستور والمجلس، وادناه نماذج من تلك البرقيات:

«فيما يلي نص برقية حجتي الاسلام والمسـلمين كـهفي المـلة والديـن حضرة الآخوند محمد كاظم الخراساني وحضرة الشيخ عبد الله المازندراني مدّ الله ظلالهما، وقد ابرقت اثناء هجرتي عن طـريق العـراق وارسـلت الى سيادة رئيس المجلس، وقد طالبنا بالرد عليها، ولكنّا لم نحصل على الجواب ولم تبحث في المجلس، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً:

ان اضافة شرط الابدية المقدس[٣٤] الى بنود الدستور الذي يقوم المجلس بصياغته ضماناً لطرح لوائح لاتتعارض والشرع المقدس، يعتبر من اهم الامور اللازمة للحفاظ على اسلامية هذا الاساس، وبما ان زنادقة هـذا العـصر قـد انتهزوا فرصة الاستفادة من الحرية لنشر الزندقة والالحاد، وشوّهوا سمعة هذا الاساس القويم، فان اضافة شرط الابـدية سـيشكل حـائلاً لردع الزنـادقة، وضماناً لتنفيذ الاحكام الالهية وعدم شيوع المنكرات، حتى يمكن وبعون الله التوصل الى النتيجة المطلوبة للمجلس، وتيأس الفـرق الضـالة، ولايـترتب

---

(٣٣) تركمان، شيخ شهيد فضل الله نوري (بالفارسـية).

(٣٤) تركمان، شيخ شهيد فضل الله نوري (بـالفارسية). نـقلاً عـن مـجلة قـضايا اسلامية، العدد ٦، ص ٢٢٨.

اشكال ان شاء الله تعالى

محمد كاظم الخراساني. عبد الله المازندراني

في السابع من جمادى الاولى (١٣٢٥هـ)

وهكذا فقد رأى هذان العالمان أطال الله تعالى ايام افاضاتهما، بان البند الداعي الى اشراف هيئة من عدول المجتهدين في كل عصر قد ادرج بنفس النهج المطبوع في الصفحة الخاصة في الدستور المقترح للمجلس، وهما استناداً الى هذا الاساس أرسلا برقية التأييد المتضمنة طلب اضافة قيد آخر للوقوف بوجه المنحرفين عن جادة الصواب الى يوم القيامة. وهو امر يظهر بعد نظرهما ووعيهما واهتمامهما، وهو امر يدعو الى الاعتزاز وجدير بالتقدير. وينبغي على عامة المسلمين قراءة نص البرقية لهذين المحترمين ليعرفوا مدى استعدادهما للدفاع عن الشريعة النبوية وصيانة مجلس الشورى، وهو ذات السبب الذي دعاني للهجرة مع الهيئة المقدسة. ورغم وجود نص البرقية مطابقة لتأريخ وامضاء دائرة التلغراف، ولكن ولحسن الحظ ورغماً على من ينكر ذلك فقد وصلتني اليوم وهو العاشر من جمادى الثانية وعن طريق البريد نص تلك البرقية وبخط هذين الحجتين الآيتين. ويمكن لمن اراد الاطلاع رؤية النص، وستنشر نسخة منه تباعاً.

حررها الداعي فضل الله النوري»[٣٥].

كما اصدر الشيخ النوري في نشرته المحلية بياناً آخر كشف فيه ان السيد كاظماً اليزدي لا يعارض الحركة الدستورية، ويستند في ذلك على برقية ارسلها السيد اليزدي الى احد علماء الدين في ايران، جاء في النشرة:

---

(٣٥) تركمان، شيخ شهيد فضل الله نوري (بالفارسية)، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

«فيما يلي مسودة برقية حضرة حجة الاسلام والمسلمين آية الله في العالمين سماحة السيد محمد كاظم الطباطبائي دامت بركاته العالية، ارسلها الى حضرة ثقة الاسلام والمسلمين كهف العلماء المجتهدين سماحة الآخوند الآملي دام ظله العالي:

من النجف / رقم ٦٧٦

حضرة ثقة الاسلام الآملي دامت بركاته.

لقد تملّكنا القلق من تجرؤ المبتدعين، واشاعة كفر الملحدين، نتيجة الحرية الزائفة. ولن يتمكنوا من تنفيذ مآربهم بعون الله. وبالطبع فان الوقوف بوجه الكفر وصيانة العقيدة وتطبيق القوانين القرآنية القويمة والشريعة المحمدية الأبدية، يعتبر من اهم فرائض العلماء الربانيين، مع الاخذ بعين الاعتبار الاسباب الموجبة لصلاح وصون الدين ودماء المسلمين. لابد من بذل الجهود في هذا الصدد.

محمد كاظم الطباطبائي

٢٣ جمادى الاولى (١٣٢٥هـ)

ليتأمل اخواننا في الدين في هذه البرقيات الواردة من النجف والتي طبعت ونشرت من قبلنا تباعاً، وليفكروا ملياً ويتعمقوا في اقوال هؤلاء الافذاذ، عظماء الاسلام الذين يعتبرون مراجع التقليد لكافة الانام لتتضح لهم نقطتان:

الاولى: ان لا احد من القادة العظام ـ يقصد المراجع ـ ينكر مبدأ وجود مجلس شورى وطني اسلامي.

والثانية: ان اهتمام حجج الاسلام منصبّ على ردع المرتدين واعداء الدين، سواء أكانوا من انصار الميرزا علي محمد الشيرازي المعروف بالباب، ام الدهريين ذوي الميول الغربية التي المس وتلمسون انتم مدى النشاط والحرية

التي حصلوا عليها، خلال هذا العام في ظل مجلس الشورى، وقد تسلّلوا وبمختلف الاساليب والحيل الى المجلس، حاملين آمالهم ونواياهم الخبيثة وذلك بالتعاون مع المجلس، بل ويدعون انهم الذين اسسوا المجلس، ويسعون ليل نهار في بذر الفرقة بين زعماء الشعب...، لتعلم جميع هذه الفئات المفسدة بأن أياً من مكائدها ودسائسها لن يجدي نفعاً، ولن يتمكن ايّ فرد من القضاء على الشريعة المحمدية المقدسة.

ان المجلس موقع اسلامي كبير للشورى، وقد اسس بمساعي حجج الاسلام ونواب الامام (عليه السلام)، وهو في خدمة بلاط الدولة الشيعية الاثني عشرية، ولحفظ حقوق اتباع المذهب الجعفري، ولا يمكن ان تنعكس عليه آثار برلماني باريس وبريطانيا او تصدر عنه قوانين حرية العقيدة والتعبير وتغيير الشرائع والاحكام، وفتح الخمارات واشاعة الفواحش وهتك ستر المخدرات واباحة المنكرات...

طبعت في حاضرة سيدنا عبد العظيم (عليه السلام)

فضل الله ألنوري[٣٦].

ان الجهود التي بذلها المغرضون لتعميق الهوة بين العلماء هي وراء الشرخ الكبير الذي حدث بينهم؛ لأنها كانت جهوداً مشؤومة تواصلت لتشويه سمعة الشيخ النوري بغية تحجيمه وضربه.

قدّر الشيخ النائيني خطورة الموقف، وتكهن بقتل الشيخ فضل الله النوري، وما سيعقبها من تحولات خطيرة، لذا سارع باخبار الآخوند الخراساني، وحذره من مغبة الموقف إنْ قتل الشيخ النوري، وقال له: «اذا اقدم انصار

---

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

المشروطة على قتل الشيخ فضل الله النوري ستسقط حيثية العلماء». فأبرق الآخوند الى اهالي طهران يدعوهم فيها الى الحفاظ على حياة الشيخ النوري، الا انها وصلت وكان الشيخ قد قضى نحبه على اعواد المشنقة[٣٧].

ساهم قتل الشيخ النوري في تعميق الشرخ حتى امتد ليعمق الخلاف في مدينة النجف، التي كان الخلاف فيها على اشده بين السيد كاظم اليزدي المحسوب على انصار المستبدة والآخوند الخراساني زعيم الحركة الدستورية. وكان لذلك الخلاف انعكاسات واسعة، فالسيد هبة الدين الشهرستاني يتحدث حول طبيعة الهيئة المتشكلة لادارة الحركة الدستورية وهو احد اعضائها، ويذكر ان العاملين مع الملا الخراساني في تلك الفترة كانوا يجتمعون لتدبير الاعمال ورسم الخطط بصورة سرية في سراديب النجف خشية العوام وانصار اليزدي. وقد ضمت الهيئة ثلاثة وثلاثين عضواً يمثلون الاغلبية العظمى من كبار المجتهدين، ورجال دين شباباً اقل مرتبة، ثم عدداً قليلاً من السادة الوجهاء[٣٨].

ولم يتمكن انصار المشروطة من حرية الحركة في النجف الا بعد اعلان الدستور في الاستانة في ٢٣ / تموز / ١٩٠٨. «فكان هذا التحول الفجائي في موقف الحكومة العثمانية من المشروطة عاملاً مهماً في تدعيم موقف الملا كاظم الخراساني واعوانه وامتد الى اعوان السيد كاظم اليزدي»[٣٩].

وظل السيد اليزدي مصراً على موقفه ومناصرته للتيار المناهض للحركة

---

(٣٧) المصدر السابق، ص ٢٠٠، انظر الهامش رقم: ٢٦.

(٣٨) الخاقاني، شعراء الغري، مصدر سابق، ج ١٠، ص ٨٨.

(٣٩) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٣،ص ١١٨.

الدستورية حتى نقل عن ابنه انه قال: «مادام الخراساني واتباعه لا يتخلون عن المجلس فان السيد كاظماً اليزدي لن يتخلى عن الشاه محمد علي»[40].

واذا صح الكلام فان السيد اليزدي يتبنى مشروع الحكومة الملكية ويدعو الى مصادرة رأي الامة، لكن الذي يهون الخطب ان الرجل وقف مرة اخرى الى جنب هؤلاء العلماء عندما اعلن الجهاد على روسيا.

فربما كان يقصد من موقفه المتشدد تخفيف الدعم لانصار المشروطة بغية الحد من شرعيتهم وبالتالي الحيلولة دون حدوث انحراف باسم الشرعية المتمثلة آنذاك بدعم العلماء للخط المنحرف حسب نظره.

كما انعكس الخلاف على جلسات المجلس النيابي. وظهرت حدته في مناقشة احدى لواحق الدستور. وقد اودت الخلافات الى مقتل السيد عبد الله البهبهاني في عام ١٩١٠م، احد رموز الحركة الدستورية، بل واحد قادتها الى جانب السيد محمد الطباطبائي[41].

اشعاعات الحركة الدستورية في العراق

رغم ما رافق الحركة الدستورية من احداث ورغم ما سجل عليها من سلبيات لكن تبقى الحركة حدثاً تاريخياً وانبعاثاً حضارياً امتدت اشعاعاته الى العراق، فتركت بصمات واضحة على تاريخه.

وربما يعد الجدل الذي أثارته وسط علماء الدين والمثقفين والجامعيين الحدث الاهم بين مشاهد وفصول المد الجماهيري العارم.

---

(٤٠) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٦٠.

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

«ونتيجة لمتابعة معظم المدن العراقية، ولاسيما المدن والمناطق الشيعية، لوقائع وتطورات الحركة الدستورية في ايران، اثيرت مناظرات مفتوحة ومناقشات صريحة في الجوامع والمدارس في النجف وغيرها، وولدت وعياً عاماً في العراق. واذ شمل النقاش والجدل العلماء والادباء والطلبة والشعب، فان طبيعة النقاش بين المجتهدين الاعلام، بشكل خاص، كانت في غاية العمق الفلسفي والاجتماعي، مراعين في ذلك الكتاب والسنة واصول الفقه»[٤٢].

فاليقظة التي احدثتها الحركة الدستورية تمثلت بالوعي الذي قوض البنى الفكرية السائدة آنذاك حول الحكم والسياسة في الاسلام. ونجح الوعي كذلك في اعادة الثقة الى نفوس الامة وقدرتها على المشاركة في الحكم. لاسيما وان العلماء اكدوا المرة تلو الاخرى عدم وجود شيء في الحركة الدستورية يتقاطع مع مبادئ الدين الاسلامي الحنيف.

وقد ظهرت نتائج الوعي الجديد بتأييد الجماهير في كربلاء للحركة الدستورية، متحدين بذلك ارادة الحاكم العسكري ومن تحفّظ على الحركة من العلماء.

ولما تحول التأييد الى مظاهرة عارمة امتدت الى جميع مناطق المدينة سارعت السلطات الحاكمة الى قمعها بعنف واحدثت مذبحة تفرق بعدها الناس هرباً من الموت، والتجأ بعض المتظاهرين الى القنصلية البريطانية لحمايتهم، مما ازعج هذا السلوك بعض العلماء فسارعوا الى ادانته. وكانت

---

(٤٢) الرهيمي، الحركة الاسلامية في العراق، مصدر سابق، ص ١٤٦.

لهذه الادانة الاثر الكبير في تحجيم السفارات الاجنبية في العراق[٤٣].

وبعد انقلاب عام ١٩٠٨م واعلان الدستور في الاستانة عاش انصار المشروطة هامشاً كبيراً من الحرية، لتراجع تيار المستبدة وانحياز انصارها الى جانب الآخوند الخراساني. وما فتئت النجف تواصل تأييدها ودعمها للحركة عبر الاجتماعات العامة والقاء الخطب[٤٤].

ان الوعي الجديد في العراق اخذ يتجسد عبر مواقف سياسية جريئة تتوافر على رؤية واضحة للموقف المتخذ واصبحت محاربة الاستبداد مبدأ لدى علماء النجف في تعاملهم مع القضايا المصيرية، لذلك بادروا الى التعاون مع حزب (الاتحاد والترقي) التركي ضد استبداد السلطان عبد الحميد من هذا المنطلق، واستمر التعاون بينهما ثلاث سنوات، (انهارت وانتهت مع بروز سياسة التتريك «الطورانية» التي شرع الاتحاديون بانتهاجها)[٤٥].

اعلان الجهاد ضد الاستعمار

تمثلت الخطوة الثانية لعلماء الامامية في محاربة الاستعمار ومقاومة الاعتداء ضد الدولة الاسلامية، وقد تم ذلك على صعيدين:

اولاً: اعلان الجهاد ضد روسيا والانجليز

ففي عام ١٩١١ اجتاحت القوات الروسية الشمال الايراني اثر اختلاف مالي وقع بينهما، كما قامت القوات البريطانية باحتلال جنوب ايران. وقد

---

(٤٣) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

بررت كلتا الدولتين هجومهما على ايران استناداً الى اتفاقية عام ١٩٠٧[٤٦].

ولم تقف روسيا على حدود احتلال الارض الايرانية وانما تجاوزت ذلك الى قتل علماء الدين في مدينة تبريز واشاعة الرعب في صفوف النـاس[٤٧]. فاستفزت الممارسات الدموية الروسية مشاعر الشعب حـتى ثـاروا مـجدداً بوجه القوات الغازية، واعلن علماء الدين الجهاد ضدها.

وحينما ترامى الى اسماع العلماء في النجف نبأ الغزو الاستعماري عـلى ايران هب علماء الدين واعلنوا الجهاد ضد القوات الروسية الغـازية، وبـهذا الصدد اصدر الآخوند الخراساني فتواه الشهيرة، واوعز بنصب الخيام خارج مدينة النجف لتعبئة الجماهير استعداداً لمواصلة حركة الجهاد ضـد القـوات الغازية، غير ان وفاة الآخوند الخراساني المفاجئة ليلة السفر الى ايـران فـي ١٢ / كانون الاول / ١٩١١ حال دون مواصلة الحركة نشـاطها العسكـري، لانشغال الامة بمراسم تشييع ودفن المرجع الديني الكبير[٤٨].

وقد شاع حول وفاة الآخوند المفاجئة حكايات مختلفة رغم ان السيد هبة الدين الشهرستاني كان يعتقد انه اصيب بنوبة قلبية اثر خبر الاحتلال الروسي للاراضي الايرانية[٤٩].

كما ان الشيخ محمد حسين النائيني كان يعتقد ان الآخوند الخراساني قرر

---

(٤٦) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٥٩.

(٤٧) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق ، مصدر سابق ، ج ٣، ص ١٢٣.

(٤٨) المصدر نفسه.

(٤٩) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٦٠.

السفر الى ايران بهدف المشاركة في صد الهجوم الروسي على ايران، والمساهمة في ارساء دعائم الحركة الدستورية وتنشيطها[٥٠].

وهذا ان دل على شيء فانما يدل على تحول المشروطة الى هم يومي كان يحمله علماء النجف، وينافحون من اجله. فالمطالبة بالحياة الدستورية مشروع سياسي حمل اعباءه ولاول مرة الآخوند الخراساني، وواصل الآخرون وفيهم الشيخ النائيني طريق الاصلاح الفكري والسياسي بغية تهيئة الارضية المناسبة لارساء الدستور.

وعندما قصفت القوات الروسية مرقد الامام علي بن موسى الرضا(ع) في مدينة مشهد واحدثت اضراراً بالقبر المقدس، واودت بحياة مجموعة من الناس، قرر العلماء مواصلة حركة الجهاد، فاجتمع في مدينة الكاظمية قرب بغداد كل من السيد مهدي الحيدري،الشيخ مهدي الخالصي، السيد اسماعيل الصدر، السيد عبد الله المازندراني، الشيخ فتح الله الاصفهاني، الشيخ محمد حسين النائيني، والسيد علي الداماد، والسيد مصطفى الكاشاني. وقرروا اعلان الجهاد ضد روسيا.

ولم يتخلف عن ركب العلماء المجتهدين في الكاظمية سوى السيد محمد تقي الشيرازي المقيم في سامراء والسيد كاظم اليزدي المقيم في النجف، فنجح الشيخ الخالصي في اقناع الاول غير انه اخفق في تغيير قناعات السيد اليزدي[٥١].

وحينما إستشهد ثقة الاسلام التبريزي مع سبعة من انصار المشروطة في

---

(٥٠) المصدر نفسه.

(٥١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢٥.

تبريز هزّ مصرعهم وجدان الامة بشكل عام وعلماء الدين بشكل خاص بما فيهم السيد كاظم اليزدي، الذي اعلن عن رفضه للاعتداء الروسي ـ البريطاني على ايران وقد اصدر فتواه التالية:

«اليوم حمل الاوربيون على البلاد الاسلامية، فاحتل الايطاليون طرابلس (ليبيا)، واحتل الروس والانجليز شمال وجنوب ايران، وقد واجه الاسلام الخطر، لذا يجب على جميع المسلمين، سواء العرب والعجم، التهيؤ للدفاع عن الاراضي الاسلامية.

وعلى المسلمين ان يضحوا بارواحهم لطرد الجنود الايطاليين عن طرابلس والقوات الروسية والانجليزية عن ايران.

ان وظيفة المسلمين اليوم هي الحفاظ على ايران والدولة العثمانية من شر الكفار الصليبيين المتجاوزين»[٥٢].

غير ان السيد اليزدي لم يتحرك في مسيرة الجهاد، ويعتقد البعض انه وقع تحت تأثير القنصل الروسي في النجف، فكان السبب في عدم انضمامه لحركة العلماء ضد الاستعمار[٥٣].

ابرق العلماء في الكاظمية عدة برقيات الى الحكومة الروسية هددوا فيها بالمجيء الى ايران اذا لم تنسحب القوات الروسية عنها. فخشيت الحكومة من قدوم العلماء واخذت تطمئنهم بانها ستسوي قضية الاحتلال الروسي لاراضيها. وقد ساهم في تهدئة العلماء اثنان من فقهاء السلطة القاجارية، احدهما الميرزا محسن الحسيني، الذي ابرق الى الشيخ النائيني برقية اكد فيها

---

(٥٢) مجلة العلم، العدد ٢ عام ١٩١١، ص ٢٨٤ نقلاً عن: حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق،ص ١٦١.

(٥٣) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٦١.

عمل الحكومة على اشاعة الهدوء والسلام، والآخر هو الميرزا احمد ابن الآخوند الخراساني، الذي كتب الى العلماء رسالة قال فيها ان الوضع في غاية الحساسية وان اي حركة تصدر عن العلماء سيقوم الروس بالقضاء على البلاد. وطالب العلماء بمساندة الحكومة.

غير ان العلماء ارسلوا رسائل متعددة الى رؤوساء العشائر في ايران طالبوهم فيها بالوقوف ضد اي اتفاق يبرمه الشاه محمد علي ـ الذي عاد الى الحكم ثانية ـ مع روسيا. فعادت البرقيات تؤكد الهدوء السائد في طهران ثم تلتها برقية من وزير الخارجية اكد فيها خروج الشاه محمد علي من ايران [٥٤].

وبهذا تمكن العلماء من صد التحرك الاستعماري ضد ايران، وحالوا دون ابرام اتفاقيات مضرة بمصالح الشعب الايراني، رغم محاولات فقهاء السلطان المشبوهة لتعطيل دور العلماء في الامة.

ثانياً: اعلان الجهاد ضد ايطاليا

رافق الاحتلال الروسي للاراضي الايرانية حدث آخر، هو احتلال القوات الايطالية لليبيا، مما اثار حفيظة علماء الدين في النجف، فسارعوا الى استنكار الاعتداء على الاراضي الاسلامية وارسل الآخوند الخراساني برقية شديدة اللهجة الى القوات الغازية، كما اعلن العلماء الجهاد ضد الايطاليين المعتدين، وقد اكد الفتوى بعد وفاته مجتهدون آخرون، كالسيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ محمد علي صاحب الجواهر. ولعل اهم الفتاوى التي صدرت هي فتوى (الخراساني، المازندراني وشيخ الشريعة الاصفهاني) هذا نصها:

---

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٦١ ـ ١٦٢.

«ايها المسلمون، يجب ان تعلموا ان جهاد الكفار، طبقاً لاجماع المسلمين وضرورات المذهب، واجب. واليوم قد احتل الجيش الايطالي طرابلس وازاح سكان هذه المناطق وقتل الرجال والنساء والاطفال.

انكم ستجاهدون في سبيل الله، فاتحدوا، ولاتبخلوا في صرف الاموال، فتجهزوا للدفاع قبل ان يفوت الاوان»[٥٥].

كما صدرت برقية اخرى عن علماء الكاظمية تؤكد للسلطان العثماني محمد الخامس خلافته للمسلمين بعد ان حثته على مقاتلة القوات الغازية[٥٦].

وارسلت الهيئة العلمية وفداً لاستطلاع الامر في ليبيا ودراسة امكانية المشاركة في حركة الجهاد هناك[٥٧].

«واستجابة لهذه الفتوى انطلقت تظاهرات وعقدت اجتماعات عامة وتشكلت لجان في معظم المدن العراقية، ولاسيما في الكاظمية وسامراء والنجف وكربلاء، اشترك فيها عدد من زعماء الفرات الاوسط وضمت اشخاصاً من الطائفتين الشيعية والسنية، بهدف دعم حركة الجهاد في ليبيا، وقد رفعت خلال التظاهرات والاجتماعات شعارات تدعو الى نبذ الخلافات وتوحيد جهود المسلمين السنة والشيعة»[٥٨].

---

(٥٥) مجلة العلم، العدد ٢، ١٩١١، ص ٢٤٦ نقلاً عن: حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٦٣.

(٥٦) المصدر نفسه.

(٥٧) كمال الدين، ثورة العشرين، مصدر سابق، ص ٤ ـ ٥.

(٥٨) تاريخ الحركة الاسلامية في العراق، مصدر سابق، ص ١٥١. وانظر: الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٨٨ـ١٨٩.

الفصل الثالث

المواقف السياسية

النشاط السياسي في العراق

رغم خيبة الامل التي خيمت على الشيخ النائيني من جراء النتائج التي افضت اليها الحركة الدستورية الا انه ظل وفياً لمبادئه ومرتكزاته الفكرية في محاربة الاستبداد والاستعمار، لذلك رمى بثقله الى جانب العلماء المقاومين للاستعمار الانجليزي في العراق. فمنذ حركة الجهاد عام ١٩١٤ حتى وفاته هناك عدة احداث تاريخية مر بها العراق، كان للشيخ النائيني فيها دور ما.

فحينما اعلن الجهاد العام من قبل مراجع الدين والعلماء ضد الجيش الانجليزي الغازي عام ١٣٣٣هـ /١٩١٤م تحركت جحافل المتطوعين من ابناء الشعب بعد حملة تعبوية واسعة تتقدمهم مجموعة من علماء الدين لحماية الثغور الاسلامية في البصرة. وكان الشيخ النائيني احد المتصدين لادارة وتنظيم العمليات العسكرية. كما شارك في بعض الحملات العسكرية وخاض الى جانب القوات الاسلامية معركة الشرف ضد القوات الغازية. بل ذكر بعض الباحثين ان الشيخ النائيني كان مؤثراً في احداث حركة الجهاد عام ١٩١٤م حتى اوعز النشاط المكثف لبعض الشخصيات الدينية في الحركة الى جهود الشيخ النائيني في اقناع هؤلاء بجدوى الجهاد

ضد الاستعمار[1].

ولما تراجعت القوات الشعبية بقيادة العلماء والقوات التركية تحت ضغط الضربات الانجليزية، اخذت قوات الاحتلال تـمتد عـبر الحـدود الجـنوبية باتجاه بغداد والمدن العراقية الاخرى. ثم بدأت تـرسخ سـيطرتها وتـحصن مواقعها بتعيين حكّام وثكنات عسكرية انتشرت في ارجاء البلاد.

وبعد توقف الحرب العالمية الاولى واعلان الهدنة حسمت قضية الولايات المنسلخة عن الدولة العثمانية من قبل بريطانيا وفرنسا، حيث قررت قـوات الانتداب اجراء استفتاء عام لتحديد مصير العراق، فجاءت نتائج الاسـتفتاء تصب في صالح الانتداب، وتـطالب بـتعيين امـير عـربي تـحت الوصـاية الانجليزية[2]. حينها دخل العلماء في مواجهة جديدة مع الاسـتعمار بـعد ان وعوا ان الاستفتاء سيكرس الوصايا البريطانية ويمنح الوجود الاجنبي شرعية الاستمرار في احتلال العراق، فسارع الشيخ محمد تقي الشـيرازي لاصـدار فتوى تقول: «ليس لاحد من المسلمين ان ينتخب ويختار غير المسلم للامارة والسلطة على المسلمين»[3].

---

(١) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٦٩ نقلاً عـن السـيد شـهاب الدينالمرعشي الذي كان حاضراً ساحات الجهاد وقد نقل مشاهداته عن مـيدان القتال والاحداث التي سبقت الحركة العامة للجهاد.

(٢) البصير، محمد مهدي، تاريخ القضية العراقية الكبرى، بـغداد، ١٩٢٣،، ج ١ ، ص ٨١.

(٣) الحسني، عبد الرزاق، العراق في دوري الاحتلال والانتداب، ج ١، ص ٧٤.

وفي عام ١٩٢٠ قرر الشيخ محمد تقي الشيرازي ومن معه مـن العـلماء القيام بثورة مسلحة شاملة لمقاومة الاحتلال. وكان للعلماء دور في ثورة عام ١٩٢٠، تمثل في خلق رأي عام مضاد للاحـتلال، رافـقته مـقاطعة شـديدة لسلطات الانتداب، كما قام العلماء بحملة توعية جماهيرية استهدفت فضح النوايا الحقيقية للدولة المستعمرة. كما كان التحرك الجديد سبباً لاقامة جسور التواصل بين الشيعة والسنة والاتحاد ضد العدو المشترك.

ثم وقّت التحرك مع صدور فتوى جديدة للشيخ الشـيرازي جـاء فـيها: «مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم فـي ضـمن مـطالبتهم رعاية السلم والامن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية اذا امتنع الانـجليز عن قبول مطالبهم»[٤].

بدأ التحرك الجماهيري المسـلح بـقيادة العـلماء، ودخـلوا فـي مـعارك ضارية مع قوات الاحتلال، راح ضحيتها اعداد كبيرة بين شهيد وجريح، وبعد شهر من اندلاع الحرب تمكنت القوات الانجليزية من السيطرة على الموقف وانهاء الثورة.

ورغم ان الشيخ النائيني لم يمتز بدور كبير على مسرح الاحداث الا انـه كان احد مستشاري شيخ الشريعة الاصفهاني الذي تصدى للحركة الاسلامية ضد الاحتلال الاجنبي بعد وفاة الشيخ محمد تقي الشيرازي عام ١٩٢٠، وفي هذا الخصوص يذكر ان شيخ الشريعة الاصفهاني كان يستشير الشيخ النائيني في الفتاوى والقرارات التي تصدر عنه[٥].

---

(٤) البصير، تاريخ القضية العراقية الكبرى، مصدر سابق، ج ١، ص ١٩٣.

(٥) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٧٢.

«هذا الدور الذي قام به العلماء في قيادة وتوجيه الثورة عسكرياً وفكرياً، كان قد شكل الاساس لدورهم السياسي الذي برز بشكل واضح عندما واجهت الثورة والمقاومة المسلحة للاحتلال، مسألة تحديد مصيرها، بعرض ادارة الاحتلال التفاوض مع القيادة الدينية للثورة»[٦].

النائيني والانتداب البريطاني

بعد وفاة شيخ الشريعة الاصفهاني في ١٨ / كانون الاول / ١٩٢٠، الذي آلت اليه زعامة الثورة بعد وفاة الشيخ محمد تقي الشيرازي في ١٧ / آب / ١٩٢٠، برز الشيخ محمد حسين النائيني احد ثلاثة علماء تصدوا لمؤامرة الانتداب البريطاني، ولعبوا دوراً هاماً في الاحداث التي اعقبت الثورة العراقية الكبرى (١٩٢٠م).

فلما اقرّ مجلس الحلفاء المنعقد في ٢٥ / ٤ / ١٩٢٠، الانتداب البريطاني على العراق[٧] بادرت بريطانيا في اول خطوة لها الى تشكيل حكومة مؤقتة، ثم اخذت تفكر في تعيين امير عربي يكون ملكاً للعراق ويحفظ المصالح البريطانية فيه، فحسم مؤتمر القاهرة ١٢ / ٣ / ١٩٢١ في تسمية فيصل كمرشح وحيد للعراق[٨].

غير ان موقف علماء الدين كان متبايناً ازاء الحدث، ولم يصدر عنهم موقف موحد، وانما برز اتجاهان يمثل كل واحد رؤية سياسية محددة:

---

(٦) الرهيمي، تاريخ الحركة الاسلامية في العراق، مصدر سابق، ص ٢٢٨.

(٧) الحسني، الثورة العراقية الكبرى، مصدر سابق، ص ٢٤٤.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٦٥.

الاتجاه الاول: يمثله السيد ابو الحسن الاصفهاني والشيخ محمد حسين النائيني. وقد رفض هذا الاتجاه ترشيح فيصل ملكاً للعراق، او ترشيح اي شخص آخر في ظل الانتداب البريطاني. ودعا الى انهاء الانتداب اولاً وتأسيس حكومة مستقلة.

فكان لهذا الاتجاه اصداء واسعة في انحاء العراق تمظهرت بالمعارضة الواسعة لفيصل، وعدم التعاطف معه في مشروعه السياسي.

ان مسألة عربية الملك او قرشيته لم تحظ بالاولوية لدى الاتجاه الاول، وانما بقي الانعتاق من رقبة الاستعمار يتصدر سلم الاولويات ويحظى باهتمام متميز، مما يكشف عن عمق الوعي لدى هذا الاتجاه، وقدرته على تشخيص الطريق وفرز الاوراق رغم اختلاطها على الاخرين. فمن يخض عالم السياسة عليه ان يكون يقظاً، حذراً، فربما تنطلي عليه المشاريع او يحتوى من قبل خصومه السياسيين وتتهاوى حينئذٍ جميع آماله وطموحاته في تحقيق اهداف مشروعه السياسي.

من جانب آخر اكد موقف الشيخ النائيني من سلطة الملك فيصل، وفاءه لمبادئه التي آمن بها من قبل، وفي مقدمتها مناهضة الاستعمار، ويكشف الحدث ايضاً ان الرجل كان على هدًى من امره في مواقفه وانه يسير وفق استراتيجية واضحة وليس محكوماً بتكتيك مرحلي. وقد عبر عن تلك الاستراتيجية في كل فرصة سنحت له. وهذه المواقف المتجانسة في وجهتها تساعدنا مستقبلاً في القاء الضوء على ما اثير حول الرجل من علامات استفهام، لاسيما في قضية جمع كتابه «تنبيه الامة وتنزيه الملة».

الاتجاه الثاني، مثله الشيخ مهدي الخالصي في الكاظمية. الذي عبّر عن رأيه بمبايعته المشروطة لفيصل. فجاء في خطاب البيعة:

«الحمد لله الذي نشر لواء الحق على رؤوس الخلق فأيدهم بالنصر برئاسة من حاز الشرف والفخر، الملك المطاع الواجب له علينا الاتباع، الملك المبجل، عظمة ملكنا فيصل الاول دامت شوكته نجل جلالة الملك حسين الاول، دامت دولته، فاحكموا بيعته وابرموا طاعته واهتفوا باسمه، مذعنين لحكمه، ونحن ممن اقتفى هذا الاثر وبايعه، في السر والجهر، على ان يكون ملكاً للعراق، مقيداً بمجلس نيابي، منقطعاً عن سلطة الغير، مستقلاً معه بالنهي والامر، ولله الامر»[٩].

يبدو ان الشيخ الخالصي كان يراهن ـ وفقاً لقناعاته الخاصة ـ على وفاء الملك فيصل بعهوده ومواثيقه وقدرته على التحرر من المواثيق التي اخذتها عليه بريطانيا لحماية مصالحها. فاراد الشيخ ان يفوّت الفرصة على الانجليز ويستثمر وجود فيصل على رأس السلطة، لذلك خلع الشيخ الخالصي البيعة التي في رقبته لفيصل عندما تخلف الأخير عن الوفاء بعهوده، وتعرض لسخط الانجليز، حتى نفي خارج البلاد كما سيأتي.

فالرجل خبير بالسياسة، كما يقول احد الباحثين، و«كان شديد الاهتمام بالسياسة ويعدها جزءاً لا يتجزأ من الدين، انه كان يعتبر الدين له ظاهر وباطن، فظاهره العبادات والشعائر، اما الباطن فينحصر في السعي لتخليص البلاد الاسلامية من تسلط الكفار. وقد كان يفضل حكم الاتراك على حكم الانجليز ، فأولئك مسلمون وهؤلاء كفار، والحاكم المسلم في نظره ولوكان ظالماً خير من الكافر العادل، فالخالصي بهذا يخالف رأي ابن طاووس الذي افتى به قديماً ، وهو ان الكافر العادل خير من

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٨١.

المسلم الظالم»[10].

لكن رغم ذلك فان موقف الشيخ الخالصي احدث شرخاً (وان لم يصل حد القطيعة) في موقف القيادة الدينية وضيّع فرصة الموقف الموحد تجاه الحدث، كما هو ديدن القيادة الدينية من قبل. غير ان هذا التقاطع لم يدم طويلاً اذ سرعان ما التأم الاتجاهان في موقف موحد ضد الغزو الوهابي على العراق، وبالخصوص غارتهم على مدينة كربلاء المقدسة.

الاعتداء الوهابي على العراق

في ٢١ / ٣ / ١٩٢٢ قام الوهابيون بهجوم واسع على العراق راح ضحيته عدد كبير من القتلى والجرحى ونهباً للاموال واعتداء على النفوس والاماكن المقدسة [11]، مما اثار ردود فعل واسعة لدى الرأي العام في اغلب المناطق العراقية، كما تفاعلت القيادات الدينية مع الحدث، فتحركت بسرعة لاتخاذ موقف مناسب من الغزو المعتدي على البلاد «وقد عقد علماء النجف عدة اجتماعات للتداول في هذا الموضوع كان على رأسهم السيد ابو الحسن الاصفهاني والميرزا حسين النائيني»[12].

فأنتجت تلك التحركات الواسعة انعقاد مؤتمر كربلاء الذي كان مناسبة جيدة لتوحيد الموقف الشيعي تحت قيادة دينية واحدة، ولأجل ذلك ابرق كل

---

(١٠) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ٤٣.

(١١) الحسني، عبد الرزاق، العراق في دوري الاحتلال والانتداب، لبنان، صيدا، ص ١٩٦.

(١٢) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٤٠.

من السيد ابو الحسن الاصفهاني والشيخ النائيني برقية الى الشيخ الخالصي يدعوانه فيه الى حضور المؤتمر. هذا نصها:

«جناب حجة الاسلام محمد مهدي الخالصي دامت بركاته:

انه لاينبغي الاتكال على وعد السلطة البريطانية في دفع شر الخوارج والاخوان عن المسلمين. فبناء عليه نأمل حضوركم في كربلاء قبل الزيارة بأيام، وتأمرون رؤساء العشائر كالسيد نور الياسري وامير ربيعة وسائر الرؤساء بعد ابلاغهم سلامنا بالحضور، كما اننا نحضر مع من في طرفنا من الرؤساء لأجل المذاكرة في شأنهم انشاء الله تعالى»[13].

فاستجاب الشيخ الخالصي وابرق مئة وخمسين برقية الى زعماء العشائر يدعوهم فيها لحضور المؤتمر، كما ارسل ولده محمداً لدعوة الملك فيصل لحضور المؤتمر[14].

وقد انعقد المؤتمر في ١١ / شعبان الموافق ٩ / نيسان / ١٩٢٢، وحضره السيد ابو الحسن الاصفهاني والخالصي وعدد غفير من رؤساء العشائر والشخصيات السياسية ووفود كثيرة مثلت المناطق العراقية، الشيعية والسنية، وعلماء دين من الشيعة والسنة. واعتذر فيصل عن حضور المؤتمر، كما لم يحضره الشيخ النائيني. يقول الشيخ محمد الخالصي في مذكراته: «... ولاقيت الميرزا النائيني فامتنع من الحضور معتذراً بأنه بلغه اننا رتبنا منهاجاً لهذا الاجتماع، وهو لايوافق على ذلك؛ لأن المنهاج من اعمال دعاة المشروطية على ما يقول، فعجبت من ذلك اشد العجب؛ لأن الميرزا النائيني كان من اصلب

---

(١٣) البصير، تاريخ القضية العراقية الكبرى، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٩١.

(١٤) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٤٠.

دعاة المشروطة، وهو الذي كتب كتاب تنبيه الامة يدعو فيه الى المشروطية والقانون الاساسي والتجدد، في حين اننا كنا ننكره عليه ولم نزل ننكر ذلك بالمعنى الذي كان النائيني يقصده منه، على ان المنهاج لا ربط له بالمشروطية بوجه. وكان ذلك الرجل الحازم يتجاهل ويتبله، فلم ازل اناظره ويصر على امتناعه حتى قلت له انك انت الذي ابرقت بذلك فما وجه امتناعك؟ وكيف نجيب الناس اذا سألوا عن سبب عدم حضورك؟ وما هو العذر عنه، فلم يؤثر عليه ذلك ولم يزل يزداد اصراراً على عدم الاشتراك في الاجتماع وعدم المضي الى كربلاء.. فلما يئست منه فارقته منكراً عليه اخلاقه واعماله...»[١٥].

هذه المذكرات تكشف مدى استياء الشيخ النائيني من ممارسات انصار المشروطة في ايران حتى اخذ يخشى من كل مظهر سياسي تحركه ايادٍ تنحو نحو الاصلاحيين، الذين اساءوا لسمعة الاصلاح، واستغلوا الفرصة لتحقيق مآربهم واطماعهم الشخصية، فكان سيّئ الظن من هذا النمط من الناس وشديد الحساسية من تحركاتهم، وتكشف هذه المذكرات ايضاً عمق الشيخ النائيني وحنكته السياسية فربما تنبأ الشيخ من خلال طبيعة المؤتمر وحضّاره انه سيفضي الى دعم الملك، الذي تحفظ على ولايته مسبقاً. وفعلاً وقع ما يخشاه الشيخ النائيني اذ جاء البيان الختامي للمؤتمر مفعماً بالمدح واستبطن الدعم السياسي لصاحب الجلالة، وهذا نص ماجاء في البيان الختامي للمؤتمر:

«نحن الموقعين ادناه ـ سادات وزعماء ورؤساء قبائل العراق اصالة

---

(١٥) مذكرات الشيخ الخالصي المخطوطة، نقلاً عن: الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٤٣.

عن انفسنا وتمثيلاً عن افراد قبائلنا تلبية لدعوة حجج الاسلام دامت بركاتهم الذين يجب علينا اطاعتهم وهي فرض دياناتنا اللازمة في اعناقنا كل وقت وحين، قد حضرنا كربلاء المشرفة في اليوم الثاني عشر من شهر شعبان ١٣٤٠ وبإرشاد رؤساء الدين العلماء وبناءً على ما اوقعه الخوارج الاخوان باخواننا المسلمين من الافعال الوحشية من القتل والسلب والنهب، فقد تعاهدنا وتعاقدنا واتفقت كلمتنا بحيث لايخالف بعضنا بعضاً فيما تقتضيه مصلحة بلادنا وحفظ المشاهد المقدسة وقبور الاولياء فقررنا مدافعة الخوارج الاخوان ومقاتلتهم بمعاضدة جيش مليكنا النظامي بكل ما في وسعنا واستطاعتنا واتخاذ التدابير اللازمة، وبناء على تعلقنا بعرش جلالة مليكنا المعظم فيصل الاول دامت شوكته فأمر كيفية دفاع الخوارج الاخوان ومقاتلتهم وعدد المدافعين من القبائل وسلاحهم واعاشتهم ومكانهم وزمانهم وتنظيمهم عائد لادارة صاحب الجلالة مليكنا وتدبيره الصائب، غير اننا نطلب استرداد الاموال المنهوبة وتأدية ديات قتلانا التي سفكت دماؤها ظلماً وعدواناً. وقد نظمنا بذلك نسختين قدمنا واحدة لعرضها لأعتاب صاحب الجلالة والثانية تبقى تحت اشراف العلماء الاعلام والله المستعان »[١٦].

لم يتراجع الشيخ النائيني عن مبادئه لأنه اول من دعا الى انعقاد المؤتمر، وقد ابرق ـ كما اسلفنا ـ الى الشيخ الخالصي يدعوه لحضور المؤتمر، وانما تحفظ الشيخ النائيني على حضور المؤتمر لأنه توقع انحرافه عن الهدف الذي

---

(١٦) جريدة العراق، العدد الصادر في ١٥/نيسان/١٩٢٢، عن: الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٤٨.

عقد من اجله. فلم يدل صراحة بذلك وانما علل عدم حضوره بوجود اشخاص يمثلون وجهة انصار المشروطة في ايران، والذين استغلوا الغطاء الشرعي والدعم العلمائي للحركة الدستورية واندسوا داخل انصار الحركة ليأتوا بالملك مرة اخرى ويؤمنوا المصالح الاجنبية ثانية تحت غطاء المشروطة. لذا كان من الطبيعي ان يتأنّى صاحب التجربة السياسية العريقة في حضور المؤتمر حتى تتكشف الحقائق امامه.

اذ ليس هناك مبرر لوصف الشيخ النائيني بالمتراجع عن مبادئه الدستورية او في حربه ضد الاستعمار، كما اعتقد ذلك صاحب المذكرات؛ لأن الشوط الآتي من حياته السياسية يقطع الطريق امام التعسف في تفسير مواقفه السياسية.

الموقف من المعاهدة العراقية ـ البريطانية

ان رفض الشعب العراقي وقادته السياسيين الشديد والمستمر لفكرة الانتداب، التي تعني «الانقياد للسلطة المنتدبة» ارغم الحكومة البريطانية على الاستجابة لمقترح يقتضي ربط العراق في بريطانيا عبر معاهدة تحمل في طياتها جميع اهداف الانتداب وتعبر عنه بصيغ دبلوماسية لاتمس المشاعر الجماهيرية او تشعرهم بالتبعية المطلقة للدولة المستعمرة. وربطوا بين المعاهدة وبين المصادقة عليها من قبل مجلس برلماني منتخب من قبل الشعب كي يحفظوا للمعاهدة غطاءها الشرعي. فصادقته الحكومة العراقية عبر مداولات سرية دارت بين المندوب البريطاني والملك والحكومة حول المعاهدة في ١٠ / ١٠ / ١٩٢٢، وحددت وفق ذلك موعداً لإجراء الانتخابات العامة لتأسيس مجلس وطني تقع على عاتقه مسؤولية المصادقة

على المعاهدة.

ومنذ ذلك الحين بدأت فصول سياسية جديدة في العراق برز فيها العلماء قادة للمعارضة السياسية. فالمعاهدة لم تحظ بمميزات كافية تساعد على قبولها بل هي الانتداب والتبعية المطلقة للاستعمار بعينه، لذلك واجهت معارضة شديدة استمرت اكثر من سنة.

ولم يصادق عليها الا بعد فصول متلاحقة من المواقف المتشنجة والحادة، وسلسلة طويلة من الاحداث السياسية التي تركت بصمات واسعة على التاريخ السياسي للعراق الحديث.

بعد ان انتشر نبأ مصادقة الحكومة العراقية والملك على المعاهدة هب علماء الدين يتقدمون شعباً غاضباً على الانتداب البريطاني، فبادروا لإعلان المعارضة الشديدة فأبرق الشيخ الخالصي برقية الى الملك هذا نصها:

«بناءً على ما قلدنا المسلمون والشعب العراقي زمام امورهم قولاً وكتباً، امضاءً وختماً، جرت المسؤولية، ان ترفض كل معاهدة تمس الاستقلال التام للشعب العراقي، حسبما حققنا ذلك»[17].

امتدت المعارضة لتشمل جميع مناطق العراق وتركزت بشدة في العاصمة بغداد، واعلن المعارضون بصراحة ان شرط الدخول في الانتخابات هو الاستقلال التام عن اي تبعية اجنبية، وهذا ما يعارض اهم بند من بنود المعاهدة. فلم تستطع الحكومة ان تقاوم الوضع المتوتر

---

(١٧) مذكرات المس بل عن: الرهيمي، تاريخ الحركة الاسلامية في العراق، مصدر سابق ، ص ٢٥٣.

فسقطت في ١٩/٨/١٩٢٢.

وفي محاولة لاحتواء المعارضة وتفكيكها اشاع الانجليز فكرة اسناد الحكومة الى احد رجال الدين، وتردد اسم السيد محمد الصدر لهذا المنصب، غير ان علماء الدين فوّتوا الفرصة على الانجليز واعلن السيد ابو الحسن والشيخ النائيني والشيخ الخالصي معارضتهم لهذه الفكرة[١٨].

ثم تراجع الشيخ الخالصي عن البيعة التي في عنقه للملك فيصل بعد ان نكث الاخير شروطها، وقال الخالصي امام جمع من انصاره: «بايعنا فيصلاً ليكون ملكاً على العراق بشروط، وقد اخل بتلك الشروط، فلم تعد له في اعناقنا واعناق الشعب العراقي أية بيعة»[١٩].

وكانت اول مظاهر للمعارضة الشعبية برزت على شكل استفتاء موجه للعلماء، هذا نصه:

«حضرات علمائنا الاعلام وحجج الاسلام متعنا الله تعالى بظلهم مدى الايام، بلغنا انكم بمقتضى وظيفتكم الدينية ورئاستكم الروحانية حرمتم كافة الامة العراقية المداخلة في هذا الانتخاب، وحرمتم المساعدة فيه بكل وجه وجعلتم المساعدة فيه محادة لله ولرسوله فنسترحم ان تبينوا صحة ذلك حتى نمتثل اوامركم التي امر الله تعالى بامتثالها ادام الله ظلكم»[٢٠].

فاجاب المجتهدون الثلاثة (السيد ابو الحسن والنائيني والخالصي) على الاستفتاء، فكان لأجوبتهم وقع كبير في تأجيج المشاعر والرفض المستمر

---

(١٨) مغنية، محمد جواد، مع علماء النجف، بيروت، ١٩٦٢، ص ١١٨.

(١٩) كبة، محمد مهدي، مذكراتي في صميم الاحداث، بيروت، ١٩٦٥، ص ٢٧.

(٢٠) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٠٢.

للمعاهدة. ونقتصر هنا على ذكر جواب الشيخ النائيني:

«بسم الله الرحمن الرحيم ـ نعم حكمنا بحرمة الانتخاب وحرمة الدخول فيه على كافة الامة العراقية، وان من دخل هذا الامر او ساعد عليه ادنى مساعدة فقد حاد الله ورسوله والائمة الطاهرين صلوات الله عليهم اجمعين، اعاذ الله الجميع عن ذلك ـ الاحقر محمد حسين الغروي النائيني»[21].

كان الشارع العراقي يتجاوب مع الفتاوى ويتحمس لرفض المعاهدة بشدة حتى دخلت بعض العشائر العراقية في مواجهة مسلحة مع القوات الحكومية. بينما استمر العلماء في اصدار الفتاوى ولكن الحكومة اخذت تشيع ان العلماء لا يعارضون الانتخابات وحالوا دون انتشار فتاوى العلماء في مناطق عديدة، فبادر الناس الى توجيه اسئلة جديدة الى مراجع الدين استفسروا فيها عن شرعية الانتخابات، وهل تجوز المشاركة فيها، فأصدر كل من السيد ابو الحسن الاصفهاني والشيخ النائيني والشيخ الخالصي فتوى مشتركة جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم: نعم قد صدر منا تحريم الانتخاب في الوقت الحاضر لما هو غير خفي على كل باد وحاضر، فمن دخل فيه او ساعد عليه، فهو كمن حارب الله ورسوله واولياءه»[22].

فلم تستطع الحكومة مواصلة سير الانتخابات وسببت مقاطعتها تجميد

---

(٢١) من وثائق البلاط الملكي، رقم الاضبارة ٣ رقم الوثيقة ٧٠، عن: الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق.

(٢٢) الكاتب، احمد، تجربة الثورة الاسلامية في العراق، منذ ١٩٢٠ حتى ١٩٨٠، طهران، ١٩٨١/١٤٠٢هـ ص ٧٦.

العملية الانتخابية. «وفي حين شكلت المقاطعة الشاملة للانتخابات ضربة قوية للآمال التي عقدتها على نجاحها الحكومة وسلطات الانتداب، فضلاً عن الملك، من اجل انعقاد المجلس التأسيسي وابرام المعاهدة، فإن هذه المقاطعة اظهرت، في الوقت نفسه، ان الدور الفعال للعلماء وموقفهم، قد شكل اقوى مانع امام تنفيذ خطط الحكومة، وحين كانت اولى نتائج ذلك استقالة الحكومة فإن سلطات الانتداب التي ادركت المخاطر التي تنطوي عليها قوة المعارضة واتساعها، اخذت تعد لمواجهة جديدة مع المعارضة وضرب قيادتها»[٢٣].

تبعيد الشيخ النائيني وزملائه الى ايران

قررت الحكومة الجديدة ان تتخذ مواقف حازمة من المعارضة وتحاول انجاح الانتخابات بأية وسيلة، فانتهجت سياسة اللين اولاً، وبادرت في اول خطوات لها الافراج عن مجموعة من العلماء كانوا قد ابعدوا عن العراق سابقاً. كما اتخذت الحكومة تدابير ادارية من شأنها ان تخفف وطأة السياسة الانجليزية في بعض المناطق. كما اثارت الحكومة المسألة التركية من جديد بهدف تفكيك المعارضة واحراجها امام الرأي العام. والاجراء الأهم الذي اتخذته الحكومة هو التوقيع على ملحق للمعاهدة يقضي بتقليص مدتها من ٢٠ سنة الى ٤ سنوات.

لكن المعارضة اتخذت مواقف متباينة تجاه التحولات في سياسة الحكومة الجديدة، فلم تعر المعارضة زيادة اهتمام بعودة المبعدين السياسيين، واصدر

---

(٢٣) تاريخ الحركة الاسلامية في العراق، مصدر سابق، ص ٢٦٢.

العلماء فتوى تحرم الدفاع عن العراق ضد الاتراك[٢٤]؛ لأن الامة الاسلامية في نظر العلماء امة واحدة لا فرق فيها بين العربي والتركي، بينما الانجليز كفار يجب محاربتهم.

اما موقف المعارضة من ملحق المعاهدة فكان شديداً، حيث جدد علماء الدين رفضهم للمعاهدة والملحق معاً، واصدروا فتاوى جديدة تؤكد رفضهم ومقاطعتهم للانتخابات. ولما استفتى الناس العلماء من جديد اجابوهم بالتأكيد على المواقف السابقة من المعاهدة والانتخابات وكانت الفتوى تذيل بأسماء كبار العلماء كالاصفهاني والنائيني والخالصي والصدر...[٢٥].

نفد صبر الانجليز والحكومة معاً وقرروا ان يتخذوا اجراء من شأنه ان يحطم المعارضة الاسلامية ويقضي على قادتها من العلماء، فوضعوا خطة موحدة تقضي بإبعاد قادة المعارضة: (السيد ابو الحسن الاصفهاني، الشيخ محمد حسين النائيني، الشيخ محمد مهدي الخالصي) الى ايران وقد ساعد على ذلك مستجدات على صعيد العلاقة بين الحكومة ورؤساء العشائر، الذين استجاب بعضهم لنداء الملك مقابل منحة كبيرة تقدمها الحكومة لهم.

اول من طالته يد الابعاد عن الوطن من العلماء هو الشيخ الخالصي فاحتج العلماء في كربلاء على هذا العمل وقرروا الهجرة الجماعية عن العراق، لكن

---

(٢٤) مذكرات المس بل، نقلاً عن: الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦،ص ٢١٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

الحكومة امرت السلطات المحلية في كربلاء بالقاء القبض على تسعة من العلماء المتظاهرين، من بينهم السيد ابو الحسن والشيخ محمد حسين النائيني وابعدتهم الى ايران.

الشيخ النائيني في ايران

تفاعلت قضية ابعاد العلماء الى ايران في الوجدان الشيعي، وظلت الامة وفية لقادتها السياسيين، حتى افشلت الجماهير الانتخابات مرة اخرى رغم الضعف الذي انتاب صفوف المعارضة بغياب قادتها، لكن فتاوى العلماء كانت فاعلة ومؤثرة ولعبت دوراً كبيراً في عرقلة الانتخابات.

اما ردود الفعل في ايران فقد ادت الى ظهور حركة معادية للانجليز. واخذت الجماهير تضغط على الشاه ليضغط بدوره على الانجليز، فنجحت تلك الضغوط وغادر السفير البريطاني في ايران الى العراق للبحث مع المندوب الانجليزي والملك امكانية رجوع العلماء الى العراق.

وقد استقبل اهالي كرمنشاه العلماء المبعدين من العراق استقبالاً حافلاً وقد ظهر عليهم الانزعاج من الحكومة العراقية، وقالوا على ملأ من الناس انهم لن يعودوا الى العراق الا بشروط منها عزل الملك فيصل، وقالوا ان لديهم رسائل من زعماء العشائر يؤيدونهم في ذلك[٢٦].

وحاول القنصل الروسي ان يستغل تذمر الناس من الانجليز فجاء لمقابلة العلماء، غير ان السيد الاصفهاني والشيخ النائيني امتنعا عن مقابلته[٢٧].

---

(٢٦) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٣٦.

(٢٧) المصدر نفسه.

ولما غادر المجتهدون كرمنشاه جرى لهم في المناطق التـي مـروا فـيها استقبال حافل حتى وصلوا مدينة قم.

النائيني في مدينة قم

جرى للشيخ النائيني ومن معه من العلماء استقبال مهيب في قم شاركت فيه الحوزة العلمية، والتف طلاب العلوم الدينية حول الشيخ النائيني[٢٨].

وبعد مدة التحق بالنائيني الشيخ الخالصي بعد ان ادى فريضة الحج، وقد جرى له استقبال يتناسب مع مقامه وشهرته.

وبعد ان استقر الشيخ الخالصي في قم برز التـباين فـي وجـهات النـظر بينه وبين الاخرين حول مفاوضة الحكومة العراقية وشخص المـلك فـيصل بالذات من اجل العودة الى العراق. وكان السيد الاصفهاني والشيخ النـائيني قـد ارسـلا مـبعوثين لمـفاوضة المـلك حـول هـذه القـضية، هـما الشـيخ مهدي الخراساني والشيخ جواد الجواهري[٢٩]. ولما سـمع الشـيخ الخـالصي بالخبر تأثر بشدة. وجاء في جانب مـن مـذكرات الشـيخ مـحمد الخـالصي ابن الشيخ الخالصي مايلي:

«لما ورد ابي الى قم ورأى ما اصاب العلماء من الوهن والخوف بمراجعتهم لفيصل وعزمهم على العودة الى العراق لامهم اشد اللوم، وبين لهم ان التكليف الشرعي والامر الالهي لايساعدان على هذا العمل، وانه يجب البقاء في ايران والسعي في اصلاحها ثم اصلاح العراق وسائر البلاد الاسلامية بواسطتها، لأنها

---

(٢٨) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٧٩.

(٢٩) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٤٦.

اذا صلحت تكون مركز الحركات الاصلاحية في جميع البلاد الاسلامية لموقعها الجغرافي واستقلالها التام، وانه يحرم التسليم الى الانجليز وفيصلهم، ولاسيما بعد ما اقدموا عليه من نفي العلماء جميعهم وعدم رعايتهم حرمة احد منهم...»[٣٠].

وفعلاً انفصل الخالصي عن العلماء واستقر في مدينة مشهد، واهتم بتقوية الحكومة الايرانية ـ وفقاً لرؤيته السياسية الجديدة ـ فافتى بتفويض الحكومة بجباية اموال الزكاة والخمس من المسلمين وانفاقها على القوات المسلحة المكلفة بحماية الثغور. وكذلك افتى بجواز انفاق واردات اوقاف الامام الرضا«ع» لسد العجز المالي الذي كانت تعاني منه الحكومة الايرانية[٣١].

مفاوضات العودة الى العراق

ظل المفوض البريطاني في ايران يتابع مسألة عودة المجتهدين الى العراق ليضع بذلك حداً للنقمة الشعبية التي احدثها مجيئهم الى قم، فإن الشعب الايراني حمل الانجليز مسؤولية هتك حرمة وقدسية مراجع الدين وكبار العلماء. وما لم يعد هؤلاء الى العراق سيأتي الغليان الشعبي على المصالح البريطانية في ايران.

غير ان المفوض البريطاني واجه خلال وجوده في ايران تصلباً من

---

(٣٠) مذكرات الشيخ الخالصي المخطوطة، نقلاً عن الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ص ٢٤٦.

(٣١) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ص ٢٤٩.

المندوب السامي البريطاني ومن رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون، اما الملك فيصل فكان ميالاً لعودتهم[٣٢]. الا انهم توصلوا اخيراً الى حل وسط وهو السماح بالعودة لهم، ما عدا الشيخ الخالصي، بعد اجراء الانتخابات وبعد ان يتعهد العلماء خطياً بعدم الخوض في السياسة[٣٣].

وكان الملك قد راسل العلماء في ايران من اجل احتوائهم والتمهيد لانجاح الانتخابات، من خلال التفاوض معهم حول العودة الى العراق. فتعهد الملك لهم بعدة امور هي:

١ ـ اسقاط الوزارة السعدونية.

٢ ـ تشكيل وزارة شيعية برئاسة رجل شيعي.

٣ ـ اعادة جميع المنفيين الى العراق.

٤ ـ رفض المعاهدة[٣٤].

في ضوء التعهدات الملكية ارسل العلماء الى وكلائهم في العراق ـ رغم عدم ثقتهم بوعود الملك ـ رسائل يعلنون فيها رفع التحريم عن الانتخابات على ان ينفذ الملك عهوده، وطالبوهم باطلاع الملك على تلك الرسائل دون ان تنشر على الناس لكي يفي بوعوده[٣٥].

---

(٣٢) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ص ٢٣٩ و٢٥٧.

(٣٣) كبة، مذكراتي في صميم الاحداث، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٠٦. وانظر: لمحات اجتماعية ، ص ٢٥٧. وتاريخ الحركة الاسلامية، مصدر سابق، ص ٢٨١.

(٣٤) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٥٧.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٨ وانظر: الرهيمي، تاريخ الحركة الاسلامية، مصدر سابق، ص ٢٨١.

فاوحى الملك بالتزامه بالعهود عبر حمل السعدون على الاستقالة الا انـه ماطل بشأن عودة العلماء حتى تمخضت مشاوراته مع المندوب السامي في ٣ / شباط / ١٩٢٣ عن الموافقة على العودة شريطة ان يتعهد كل من العلماء خطياً بعدم التدخل في السياسة مع استثناء الشيخ الخالصي[٣٦].

لكن العلماء اعترضوا على استثناء الشيخ الخالصي، ولم يـوافـقوا عـلى العودة الا بعد محاولات شاقة تبناها كل من رضا خان رئيس الوزراء الايراني، والشيخ جواد الجواهري،ومهدي الخراساني والسيد رامز واحد العين [٣٧].

وقد كتب كل من السيد الاصفهاني والشيخ النائيني قبل عودتهما رسائل خطية تعهدوا فيها الى الملك بعدم التدخل في السياسة. ويقول الدكتور علي الوردي انه عثر في وثائق البلاط الملكي على اربع رسائل موجهة الى الملك وهي بتوقيع كل من السيد ابو الحسن الاصفهاني والمـيرزا حسـين النـائيني والسيد عبد الحسين الطباطبائي والسيد حسن الطباطبائي وهي كلها بـنص واحد تقريباً، والمظنون انها تضمنت التعهد المطلوب منهم، وقد نقل نص رسالة السيد الاصفهاني[٣٨].

النائيني واعلان الجمهورية في ايران

رافقت اقامة الشيخ النائيني في قم احداث تاريخية، كان له فيها دور مؤثر بحكم موقعه العلمي والقيادي، وتمتعه بسمعة كبيرة لدى الشعب الايـرانـي،

---

(٣٦) كبة، مذكراتي في صميم الاحداث، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٠٦.

(٣٧) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٦٠.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢٦١، وتشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٨٢ـ١٨٣.

فرضت على المتصدين للشأن السياسي والمقامات الحكومية عدم تجاوزه او الغائه من المعادلة السياسية.

من هذا المنطلق كان وزير الدفاع آنذاك رضاخان، الذي رشح توّاً لمنصب رئيس الوزراء، يعمق علاقته بعلماء الدين كالاصفهاني والنائيني والحائري، رغم ان الاخير لاشأن له في السياسة[39]. فأراد رضاخان ان يستثمر العلاقة لتحقيق مشروعه السياسي القادم، الذي يطمح الى اعلان الجمهورية على غرار ماحدث لتركية على يد اتاتورك، وينهي بذلك ١٥٠ سنة من الحكم القاجاري.

ولم ينشط رضاخان في هذا الاتجاه الا بعد ان غادر احمد شاه البلاد متوجهاً الى اوربا وقرر عدم العودة الى ايران حتى تستقر الاوضاع فيها. وكان اول اعلان لرضاخان عن فكرة الجمهورية عند افتتاح المجلس البرلماني الخامس فى ٥ / رجب / ١٣٤٢هـ لكنه اخفق لشدة المعارضة داخل المجلس وخارجه رغم الحملة الاعلامية المؤيدة للجمهورية وكان على رأس المعارضين السيد حسن مدرس، احد الفقهاء الخمسة الذين انتخبهم المجلس من بين مجموعة من الفقهاء رشحهم مراجع الدين في النجف، وفق ملحق الدستور، ليمارسوا الرقابة على القوانين واللوائح الصادرة عن المجلس، وضمان عدم مخالفتها للدستور وللشريعة الاسلامية.

في ظل المعارضة الواسعة لإعلان الجمهورية تراجع رضاخان عن متابعة القرار، لاسيما بعد انضمام علماء الدين الى خندق المعارضة، وقد ساهم انصار احمد شاه بحمل العلماء لاتخاذ موقف صارم من الجمهورية، كما ارسل الشاه ـ في محاولة لكسب العلماء الى جانبه ـ رسالة من اوربا مفادها انه نسق مع

---

(٣٩) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٧٩ـ١٨٠.

الانجليز حول قضية تسوية عودة العلماء الى العراق[٤٠]. فعقد العلماء في ضوء التطورات الجديدة ندوة حضرها الشيخ عبد الكريم الحائري والنائيني والاصفهاني وآخرون، تقرر بعدها اقناع رئيس الوزراء رضاخان بأن الشاه احمد لا يمثل خطراً حقيقياً على ايران او على شخص رئيس الوزراء مادامت سلطة الشاه مقيدة بالدستور وغير مطلقة[٤١]. وقد حاول الشيخ النائيني ان يخفف من حدة المواجهة بين السيد حسن مدرس (احد فقهاء المجلس آنذاك) ورضاخان، وحاول اقناع الاول بذلك الا انه اخفق، وظل السيد حسن مدرس الخصم العنيد لرضاخان حتى بعد تسلمه للسلطة[٤٢].

ويذكر ان مظاهرة حاشدة اجتاحت العاصمة طهران وطوقت المجلس في اليوم المقرر لمناقشة فكرة اعلان الجمهورية التي طرحها رضاخان، فأمر الاخير بقمع المظاهرة، مما اثار رئيس واعضاء المجلس وقرروا عزل رضاخان عن رئاسة الوزراء، فثارت ثائرته، وقصد قم فوراً بحجة توديع العلماء، فالتقى كلاً من الحائري والاصفهاني والنائيني، وبعد تبادل الآراء ابرق العلماء الثلاثة برقية الى علماء طهران اكدوا فيها انسحاب رضاخان عن فكرة الجمهورية وطالبوا الجماهير بالتزام الهدوء واغلاق الموضوع. وقد ذيل الرسالة كل من العلماء الثلاثة بتوقيعه[٤٣].

فاستغل رضاخان البرقية واصدر بياناً اكد فيه ولاءه للعلماء وانه ماضٍ في

---

(٤٠) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٨٧.

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٩١.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

اتباع اوامرهم ونواهيهم، في محاولة لكسب الرأي العام.

ثم ان رضاخان لم يهدف فقط لإعلان الجمهورية او تحقيق المآرب الانجليزية وانما يقصد من وراء ذلك استتباب الامر له، بعد القضاء على سلطة الملك، فظل يعمل من اجل انجاح خطته.

وقبل ان نتطرق للخطوة التالية لرضاخان ثمة حقيقة نشير لها وهي ان معارضة العلماء وعلى رأسهم السيد حسن مدرس لفكرة الجمهورية ناتجة عن وعيهم للاهداف الكامنة وراء الفكرة، فهم يخشون على البلاد ان تحذو حذو تركية على يد اتاتورك، الذي الغى الخلافة العثمانية واعلن الجمهورية وارسى قواعد الدولة العلمانية بعد ان فصل الدين عن السياسة، ودعا الى اقتفاء آثار الغرب وقطع الصلة بالماضي وبالتراث والى كل ما يمت للامة بصلة. وكان رضاخان شديد التأثر بأتاتورك ويطمح ان يكرر تجربته في ايران.

ورغم فشل فكرة الجمهورية الا ان رضاخان ظل يعمق علاقته بالعلماء لكي ينتزع لممارساته بعض الشرعية من خلال تأييد العلماء له. وبهذا الاتجاه ارسل احد ضباطه برفقة العلماء عند عودتهم الى العراق، وهو (سردار رفعت).

وحينما عاد الضابط الى ايران حمله الشيخ النائيني رسالة شكر الى رئيس الوزراء وقد ضمنها شكره وامتنانه لخدماته، واطرى عليه كثيراً ووعده ان يدعو له دائماً وارسل معه صورة الامام علي (ع)،او سيفه، هدية له. واكد لرئيس الوزراء ان اعماله ستكون مرضية عند الله[٤٤].

---

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٩١_١٩٢.

غير ان رسالة النائيني وهديته الى رئيس الوزراء قد ازعجت علماء طهران؛ لأن هذا الموقف سيقدم لرضاخان دعماً كبيراً امام الشعب.

حاول رضاخان ان يستثمر العلاقة مع العلماء ويحقق جميع اهدافه، فتوجه الى العراق في عام ١٩٢٥م بصورة سرية والتقى النائيني والاصفهاني في مدينة النجف، وقد تعهد للعلماء خلال لقائه بهم ان يلتزم بملحق الدستور القاضي بتعيين خمسة فقهاء لمراقبة القوانين واللوائح الصادرة عن المجلس، كما اعطى المواثيق والعهود بأن يسير بسيرة العلماء وان لا يخالف لهم امراً[٤٥].

على اثر ذلك اصدر السيد ابو الحسن الاصفهاني والشيخ النائيني فتوى مشتركة تقضي بحرمة الخروج على حكم رضاخان، وقد نشرت الفتوى باللغتين العربية والفارسية في الصحف الايرانية [٤٦]، فكانت اقوى ركيزة اتكأ عليها رضاخان، ليعلن فيما بعد عزل احمد شاه واعلان نفسه ملكاً للبلاد. وقد صادق المجلس على ذلك في ٣١ / تشرين الاول / ١٩٢٥.

الرمز العلمي

احتل الشيخ النائيني على الصعيد العلمي مكانة بارزة بين العلماء، حتى تفرد بمدرسة علمية لها آراؤها ومتبنياتها العلمية في الفقه واصول الفقه. وظل رأيه الاصولي وابداعاته العلمية مدار بحث متواصل من قبل من تأخر

---

(٤٥) الخاقاني، شعراء الغري، مصدر سابق، ج ٤ ص ٣٠١.

(٤٦) صحيفة الحبل المتين، ٢٧ /اكتوبر /١٩٢٤، عن: الحائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ١٩٣.

عنه من الاصوليين.

ويصور لنا الشيخ الطهراني الدائرة العلمية التي احتلها الشيخ النائيني فيقول: «اما هو في الاصول فأمر عظيم لأنه احاط بكلياته ودقه تدقيقاً مدهشاً واتقنه اتقاناً غريباً. وقد رن الفضاء باقواله ونظرياته العميقة. كما انطبعت افكار اكثر المعاصرين بطابع خاص من آرائه، حتى عد مجدداً في هذا العلم، كما عدت نظرياته مماثلة لنظريات شيخنا الخراساني وكان لبحثه ميزة خاصة لدقة مسلكه وغموض تحقيقاته، فلا يحضره الا ذوو الكفاءة من اهل النظر ولا مجال فيه للناشئة والمتوسطين لحضورهم للاستفادة منه»[٤٧].

وقد حرر بحوثه ومحاضراته العلمية تلاميذه، منها كتاب: فوائد الاصول، للشيخ محمد علي الكاظمي، واجود التقريرات للسيد ابو القاسم الخوئي.

اما في الفقه فقد عرف من تقريراته كتاب: منية الطالب في شرح المكاسب للشيخ موسى النجفي.

وفاة الشيخ النائيني

توفي الشيخ النائيني بعد (٧٦) عام من العمل العلمي والسياسي والجهادي المتواصل فاقيمت له مجالس تأبين واسعة، وقال فيه الشعراء قصائد رائعة، تمجد مواقفه التاريخية في مناهضة الاستبداد ومحاربة الاستعمار طيلة حياته .

---

(٤٧) الطهراني، آغا بزرك، نقباء البشر، ج ٢، ص ٥٩٥.

المحطات السياسية في حياة النائيني

قبل ان نختم هذا الفصل من مسيرة الشيخ محمد حسين النائيني لابد من العودة ثانية الى المفاصل الاساسية في حياته السياسية، ونحاول قراءة مواقفه قراءة متكاملة لنكتشف المرتكزات الفكرية التي اتكأ عليها في مواقفه خلال ثلاثة مشاهد اساسية.

لا شك في ان النائيني كان من انصار الحركة الدستورية وقد مثلت تلك الفترة بالنسبة له مرحلة النضج الفكري وتكامل مكونات الوعي، فأنتج كتابه المعروف (تنبيه الامة وتنزيه الملة) الذي يعد وثيقة مهمة، نظّر فيها النائيني للحركة الدستورية ووضع ملامح نظريته في السياسة والحكم، فجاءت الرسالة ثورة ضد الاستبداد ودعوة صريحة للشورى والحرية ورفض التفرد في السلطة كما سيأتي في الفصل الثالث.

وبعد الانحراف في مسيرة انصار المشروطة في طهران ومقتل الشيخ فضل الله النوري تسرب الشك الى قناعة الشيخ النائيني في جدوى تطبيق الحياة الدستورية في ظل فئة من المتغربين العلمانيين المتربصين لطعن الدين وتحقيق اهداف الدول الاجنبية التي يحتفظون لها بولاء حقيقي.

فمنذ ذلك الحين اخذ يفصل بين شيئين، بين محاربة الاستعمار والاستبداد من جهة، وبين حماية المشاريع المتسترة تحت لافتة الاصلاح وتطبيق الدستور، لذلك هو من جملة العلماء الذين شاركوا في حركة الجهاد (عام ١٩١٤) والتي وقعت بعد الحركة الدستورية، وتصدى للمشروع الانجليزي بعد اخفاق ثورة العشرين، كما كان في صلب احداث الثورة العراقية الكبرى وكان مستشاراً لقادتها، كل ذلك كان يجري وفقاً لمتبنياته الفكرية دون اي

تراجع نظري عنها.

وعندما هدد الوهابيون المناطق العراقية سارع لنجدة الاماكن المقدسة ودعا الى عقد مؤتمر من اجل انقاذ الوضع السياسي المتدهور في البلاد غير انه امتنع عن الحضور حينما شعر ان المؤتمر قد استغل من قبل انصار الملكية، وفعلاً جاء البيان الختامي لمؤتمر كربلاء مما تقدم مفعماً بالنصرة للملك والملوكية.

فليس هناك تراجع في رؤيته الفكرية او موقفه المبدئي والا لما واصل معارضته للانتخابات في العراق، وبقي احد المعارضين حتى نفي الى ايران.

ولما قرر الدخول في مباحثات مع الملك فيصل بشأن العودة الى العراق وقبوله باعتزال السياسة وكتابة تعهد خطي. كل ذلك قد جرى ضمن ظروف لم نتمكن من درك حقيقتها؛ لأن رجلاً مثل الشيخ النائيني قد خاض تجارب سياسية معقدة ليس من السهل ان يتراجع عن كل مبدأ آمن به، وهو رمز ديني كبير لكنه ربما، قبل بالعودة المشروطة الى العراق بعدما جزم ـ وفقاً للعهود التي قطعها الملك على نفسه ـ بأن اهداف تحركه ستتحقق، فلا موجب للاستمرار في التحرك. وهذا الرأي وان لم يكن على درجة عالية من الصواب لكنه يمكن ان يكون مبرراً كافياً لاتخاذ مثل هذا الموقف التاريخي بالنسبة للشيخ النائيني.

فالملك فيصل وعد بانهاء الانتداب والاستقلال التام وتغيير الحكومة السعدونية وعودة جميع المبعدين.

وربما كان ذلك تكتيكاً من قبل الشيخ لولا ان العلاقة الفردية بين النائيني

والملك فيصل ثم غازي تحول دون ترجيح فكرة التكتيك.

اما علاقته برضاخان فهي ردة فعل واضحة من فكرة الجمهورية المشابهة لجمهورية اتاتورك، وقلنا ان الرجل حساس جداً ازاء مشاريع التجديد.

لكن هل يقتضي هذا ان يدعم النائيني رضاخان بهذه الطريقة ويرمي بكل ثقله الى جانبه حتى لم يسجل لنا التاريخ بعد ذلك اي نشاط سياسي له ضد رضاخان في ايران او فيصل وغازي في العراق؟ بل هناك وثائق تؤكد طيب العلاقة مع الاول[٤٨]. وكذلك مع فيصل وغازي، فحينما مرض الشيخ في عام ١٩٢٧ زاره الملك فيصل في مستشفاه في بغداد، وفي عام ١٩٢٩ زاره في مدينة النجف. وحينما مرض النائيني في المرة الاخيرة نزل ضيفاً في قصور الملك غازي عام ١٩٣٣[٤٩].

لا نريد ان نعتمد منهج التبرير في دراسة شخصية النائيني وانما نطمح الى اكتشاف الابعاد الايجابية في مشروعه الاصلاحي لنتواصل معها. ونفتش عن علل واسباب الجوانب السلبية ـ اذا وجدت ـ مغبة ان يتكرر الخطأ، وحينها سوف نضحي بالمشروع الاصلاحي لصالح قناعات غير صحيحة. وعليه تبقى علامات الاستفهام تحوم حول بعض مواقفه، ولا تنفع معها التبريرات.

ثمة حقيقة اخرى هي ان الشيخ النائيني قد انطفأ وهجه الاصلاحي عند وفاة الآخوند الخراساني رغم مواقفه المشرفة في مقاومة الاستعمار. وحل به

---

(٤٨) حائري، تشيع ومشروطيت ، مصدر سابق ، ص ١٩٥.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

ما حل بمحمد عبده عند وفاة استاذه السيد جمال الدين الحسيني المعروف بالافغاني. فكلا الرجلين نشعر عندما نقارب حياتهما انـهما كـانا يـتحركان بحركة استاذيهما. والا فالاصلاح تبنّ حقيقي لمشروع مستقبلي لا تفت في عضده اخفاقات السياسة المؤقتة او مؤامـرات الاعـداء، ولا تشـل حـركتة انفعالات الجهلاء، وانما الصبر والمثابرة هـما وقـوده الدائـم فـي مـواجـهة التحديات.

الفصل الرابع

مقومات المشروع الاصلاحي

اتضح من خلال حياة الشيخ النائيني ومتابعة فصول الاحداث السياسية التي رافقته، فأثر بها او تأثر بها، ان الرجل كان يتحرك ضمن مشروع سياسي يتسم بالوضوح والثبات في مقاومة الاستبداد ومحاربة الاستعمار، وظل وفياً لمبادئه حتى المراحل الاخيرة من عمره. ولم يكتف بالانخراط في صفوف المجاهدين والثوار او الوقوف الى جانب القيادة السياسية، او التصدي لقيادة العمل السياسي بنفسه بل راح ينظّر لمشروعه السياسي والاصلاحي، حتى نجح في ارساء اسس سليمة صالحة لتشييد رؤية متكاملة عن المشروع السياسي الاسلامي. وبهذا العمل التنظيري الرصين استطاع ان يجلي الحقيقة ويرسم معالم الثورة ضد الاستبداد والتسلط، ويجعل السائرين في درب الحرية (ابان الحركة الدستورية) على بينة من امرهم، بعدما اختلطت الاوراق بشكل معقد من جراء التبني العلمائي لكلا التيارين المتنازعين في الساحة السياسية، وشدة تدخل الاستعمار في الاوضاع الداخلية. فاذا كان الشيخ الآخوند الخراساني والمازندراني والطباطبائي والبهبهاني والنائيني وغيرهم على رأس تيار الاصلاح الداعي الى نظام دستوري يقيد حركة السلطان (الشاه) وممارساته المطلقة ويعيد للامة شخصيتها ودورها في تقرير مصيرها، كان السيد اليزدي والشيخ فضل الله النوري يتحركان ضمن التيار المعاكس، فاصبح من الصعب على غير الخبير فرز الاوراق واختيار الورقة الرابحة، وربما تسبب الوضع في تردد او تراجع بعض انصار التيار الاول

لضبابية المشهد السياسي.

غير ان الشيخ النائيني خطا خطوة كبيرة على الطريق الصحيح لحسم الموقف نظرياً وتبديد الشكوك التي حامت حول شرعية الحركة الدستورية والشك في مطابقتها للشريعة الاسلامية. فبادر الى تأليف كتاب: «تنبيه الامة وتنزيه الملة» ليملأ الفراغ النظري حول هذه المسألة وغيرها من مسائل الفقه السياسي. فأثار الكتاب جدلاً واسعاً في الاوساط السياسية والعلمية واحدث ضجة اعطت زخماً جديداً للحركة[1]. اذ بين الكتاب الاسس النظرية لشرعية (المشروطة) والحكم الدستوري طبقاً للقرآن الكريم والسنة الشريفة والفهم الصحيح للشريعة الاسلامية.

ثمة حقيقة تجدر الاشارة لها وهي ان الكتاب ولد في مناخ شهد توتراً قوياً في العلاقات السياسية فانعكس على تصريحات وبيانات قادة كلا التيارين بوضوح، بل كانت اسقاطات الصراع حاضرة لدى الشيخ النائيني عند تأليفه الكتاب، وهذا ما تؤكده بعض العبارات القاسية ضد التيار المعارض للمشروطة.

تنبيه الامة وتنزيه الملة

الف الشيخ النائيني كتاب (تنبيه الامة وتنزيه الملة) بعد اغلاق المجلس ابان حقبة الاستبداد الصغير ٢٣ / جمادى الاولى / ١٣٢٦ هـ (٢٣ / ٦ / ١٩٠٨م) ـ ٢٦ / جمادى الاولى / ١٣٢٧ هـ (١٥ / ٧ / ١٩٠٩م). وطبع الكتاب اول مرة في بغداد ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩م، ثم اعيد طبعه بعد

---

(١) حائري، تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ٢١٧.

عام في طهران، لكن الشيخ بادر الى جمعه واتلافه، ولم يـر الكـتاب النـور ثانية الا عام ١٩٥٥م حيث طبع هذه المرة مشتملاً عـلى مـقدمة وتـحقيق وتعليق للسيد مـحمود الطـالقاني. وقـد اعـتمدنا عـلى هـذه النسـخة فـي دراسة افكار الشيخ النائيني.

وكان الشيخ حريصاً أن تكون لغة الكتاب مفهومة من قبل طبقة واسعة من الناس غير انه جاء بلغة فارسية معقدة وعسيرة.

ورغم صغر حجم الكتاب الا ان الشيخ نجح في رسـم صـورة واضـحة لافكاره ومتبنياته الفكرية المنسجمة مع المشروع السياسي المطروح آنذاك، فحظي بتأييد واسع لدى العلماء وامضاه اثنان من العلماء الكبار، هما الآخوند الخراساني والشيخ عبد الله المازندراني، وقـد تـصدر الامـضاءان الصـفحة الاولى من الطبعة الثالثة، مما اكسب الافكار الواردة فيه شرعية كبيرة. وصار مرجعاً لتكوين رؤية ناضجة عن السياسة والحكم في الاسلام.

لهذا احتفظ الكتاب بحيويته وفاعليته رغم تقادم السنين عـليه، فـاخذ يعد فكر الشـيخ النـائيني فكـراً اصـلاحياً، وادرج اسـمه بـقوة فـي قـائمة المصلحين الاسلاميين[٢].

الجذور الفكرية للكتاب

لا يخفى ان الشيخ النائيني من العلماء الذين كرسوا حياتهم لدراسة العلوم الاسلامية وفقه الشريعة واصولها والنص القرآني والحـديث الشـريف، وقـد

---

(٢) المطهري، مرتضى، الحركات الاسـلامية فـي القـرن الاخـير (بـالفارسية)، ايران، قم، منشورات صدرا، ص ٦٠

احتفظ لنفسه برؤية محددة عن الاسلام واهدافه ومبادئه، تسمح له بصياغة افكار ونظريات جديدة وهذا جلي من خلال الافكار التي ذكرها في كتابه المشار اليه، لكن هذا لا يعني ان جميع ما كتبه هو من ابداعاته ولم يعتمد مرجعية معينة في صياغة افكاره وبلورة نظرياته. وكونه متخصصاً في العلوم الاسلامية لايمنع ان يستفيد الشيخ محمد حسين النائيني من افكار الآخرين اذا كانت تصب في الهدف نفسه.

فمن يقارن بين كتاب (تنبيه الامة وتنزيه الملة) للنائيني وكتاب طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي يلاحظ بوضوح سياق الاهداف الداعية لمحاربة الاستبداد وتقويض عرى الطواغيت والظلمة.

واذا توقف الكواكبي على طرح الاسئلة والاستفهامات بشأن الدولة الدستورية فان النائيني قدم نظرية متكاملة حول البناء الدستوري للدولة الاسلامية، واستطاع ان يصوغ افكار الكواكبي صياغة علمية استناداً الى الكتاب والسنة ونهج البلاغة، وقدم رؤية متكاملة عن التوحيد الذي تحدث عنه الكواكبي في طبائع الاستبداد[٣].

والذي يؤكد تأثر الشيخ النائيني بفكر السيد الكواكبي هو استخدامه لنفس مصطلحات كتاب طبائع الاستبداد مع ترحمه على من قسّم الاستبداد الى استبداد سياسي وآخر ديني، والذي قام بهذا التقسيم من الاسلاميين هو السيد الكواكبي[٤].

---

(٣) الحركات الاسلامية، مصدر سابق، ص ٤٦

(٤) النائيني، الشيخ محمد حسين، تنبيه الامة وتنزيه الملة (بالفارسية) تعليق: السيد محمود الطالقاني، طهران، الشركة المساهمة للنشر، ص ٢٧

وليس من الصعب ان يلتقي النائيني كتاب طبائع الاستبداد، لانه طبع اول مرة عام ١٩٠٥م في القاهرة ثم ترجم الى الفارسية عام ١٩٠٧[٥].ولعله اول كتاب آنذاك يكرس لدراسة ظاهرة الاستبداد من وجهة نظر اسلامية، وان كانت هناك دراسات عن الموضوع ذاته تمثل وجهات نظر اخرى، اهمها كتاب الاستبداد للكاتب الايطالي «فتوريو الفبري» ١٧٤٩ ـ ١٨٠٣، الذي اشار له السيد الكواكبي في طبائع الاستبداد [٦].

فمسألة استسقاء الافكار والتلاقح الفكري والمثاقفة واقتباس المعلومات امر طبيعي في حيز الثقافة، وليست المعرفة سوى تراكم مستمر للمعلومات وتطوير الاشارات المعرفية الصادرة من هنا وهناك.

يتكون كتاب (تنبيه الامة وتنزيه الملة) للشيخ محمد حسين النائيني من مقدمة شرح فيها المؤلف حقيقة الاستبداد، دستورية الدولة، تحقق الدستور ومجلس الشورى الوطني، وبيان معنى الحرية والمساواة.

والفصل الاول خصص لبيان حقيقة السلطة، والانحراف الذي يطرأ عليها، وامكانية تقيد السلطة الغاصبة، مع توضيح حقيقة التقييد وحدوده.

وفي الفصل الثاني: اجاب على سؤال مفترض: هو ان تقيد السلطة واجب في زمان غيبة الامام المعصوم ام لا ؟ فأجاب اجابة فقهية وافية لتبرير وجوب تقيد السلطة بدستور مقر من قبل الامة وممضى من قبل الفقهاء.

والفصل الثالث: خصصه لبيان قدرة الدستور على تحديد ممارسات

---

(٥) ترجمه الى الفارسية عبد الحسين قاجار، طهران، ١٩٠٧م

(٦) الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار الشرق العربي، ط٣، ١٤١١هـ ١٩٩١، ص ١٥١

السلطات. وتعرض فيه للشورى واهميتها ودورها واستشهد بسيرة الرسول (ص) والامام علي (ع).

والفصل الرابع: خصصه للاجابة على الاشكالات والاوهام التـي تـحوم حول النظام الدستوري.

والفصل الخامس: شرح فيه وظيفة مجلس الرقابة المكون من مجموعة من المجتهدين.

اما الخاتمة: فقد اشتملت على امرين:

١ـ بيان مصادر الاستبداد.

٢ـ الطرق الكفيلة بمعالجة الاستبداد.

المشروع الاصلاحي

يهدف المشروع الاصلاحي للشيخ النائيني الى نفس الاهداف التي نافح عنها السيد جمال الدين الحسيني المعروف بالافغاني والسيد عـبد الرحـمن الكواكبي وغيرهما من المصلحين. ويشابه الى حد كبير ملامح مشروع السيد جمال الدين لكنه يفترق عنه بقوة التنظير الفقهي والاصـولي ونـجاحه فـي صياغة نظرية متكاملة في السياسة والحكم.

ويمكن ان نحلل مشروع الشيخ النائيني الاصلاحي في الخطوات التالية:

اولاً: محاربة الاستعمار

سوف لن نتوقف طويلاً عند هذه النقطة بعدما طالعنا سيرة الشيخ النائيني في جهاده المستمر للاستعمار. فقد انضم اول مرة الى سرايا الجهاد التي اعدها

الشيخ الآخوند الخراساني للدفاع عن شمال ايران. ولما توفي الآخوند كـان النائيني احد العلماء الذين اجتمعوا في مدينة الكاظمية ثانية للتحرك صوب ايران دفاعاً عن مدينة مشهد التي تعرضت لقصف القوات الروسية بالمدفعية.

كما شارك الشيخ النائيني في حركة الجهاد دفاعاً عن ثغور العـراق التـي اقتحمتها القوات البريطانية الغازية، وكان له دور متميز فـي ادارة العـمليات الجهادية ووقوفه الى جانب القيادة العلمائية.

اما في احداث ثورة ١٩٢٠ في العراق فقد كان الشيخ احـد قـادة تـلك الاحداث والمناهض الاول لخطط الاستعمار البريطاني، وقد وقف بشدة بوجه التآمر على سيادة الشعب العراقي وحقه في تقرير مصيره، ورفض اي حكومة في ظل الانتداب البريطاني. وقد تعرض بسبب مواقفه المـتشددة الى النـفي خارج البلاد.

كما كان احد المنددين بالغزو الايطالي لليبيا، واحد الدعاة الى الدفاع عن ليبيا المسلمة في محنتها مع الاستعمار.

تلك المواقف الجهادية تكفي بنفسها دليلاً واضحاً على مصداقية الشـيخ محمد حسين النائيني في دعوى محاربة الاستعمار ورفض السياسة الغازية لبلاد المسلمين.

ثانياً: مناهضة الاستبداد

عاش الشيخ النائيني جزءاً من حياته في ظل الاستبداد القـاجاري فـي ايران، وظلت تقلقه الممارسات التعسفية لذلك الاستبداد وشدة وطأته على الشعب الايراني وهو في مقر اقامته في العراق.

ومـــنذ الشـوط الاول مـن حـياته العـلمية فـي مـدينة اصـفهان اخـذ

الشيخ النائيني يحمل انطباعاً سيئاً عن الاستبداد بجميع انواعه ـ كمامر ـ وظلت تلك الصورة السوداوية للاستبداد تساهم في تكوين بنيته المعرفية وتحفزه باستمرار ضد اي لون من الوان الاستبداد. فانحياز الشيخ الي انصار المشروطة امر طبيعي يفرضه الاتجاه العام لتفكيره المضاد للاستبداد. واذا اضفنا العامل الديني الى شخصية الشيخ النائيني اصبح من السهل تفسير مواقفه المضادة للاستبداد وحساسيته العالية ازاءه. كما يمكن ان نجزم ان مناهضته للاستبداد ليست تكتيكاً وانما استراتيجية ضمن مشروعه الاصلاحي. وقد عمل بقوة من اجل تغيير الواقع وخلق مناخ نقي من الاستبداد والاضطهاد السياسي. وبهذا استحق ان يكون احد الرواد الاوائل للاصلاح.

تكلم الشيخ محمد حسين النائيني طويلاً عن الاستبداد في كتابه: «تنبيه الامة وتنزيه الملة». فعرّفه وذكر انواعه واسبابه وطرق مكافحته والتخلص منه. كما درس تاريخ الاستبداد في ظل الدولة الاسلامية. وماهي مناشئه فيها، وما هو دور الاستبداد الديني في تعميق وتعقيد الاستبداد السياسي. وسنتعرض الى افكار الشيخ النائيني من خلال مراجعة كتابه الآنف الذكر.

تعريف الاستبداد

المستبد (Despot) مشتقة عن الكلمة اليونانية ديسبوتيس (Despotes)، التي تعني رب الاسرة، او سيد المنزل، او السيد على عبيده، ثم خرجت الى عالم السياسة لكي تطلق على نمط من انماط الحكم، بعد ان

طورت الكلمة اكثر من مرة على يدي رجال الفكر السياسي، كان آخرهم مونتسكيو (١٦٨٩م ـ ١٧٥٥م)[٧].

وقال الكواكبي: ان الاستبداد في اصطلاح السياسيين: «هو تصرف فرد او جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعه»[٨].

واما عند النائيني: «هو ان يتعامل السلطان مع افراد مملكته معاملة المالكين لاموالهم الشخصية، فالبلاد وما فيها ملك شخصي، وابناء مملكته كالعبيد والاماء، او كالاغنام والعبيد، مخلوقين ومسخرين لارادته وتحقيق شهواته»[٩]. ثم يخلص الى القول بان الاستبداد هو«اغتصاب الحرية»[١٠]. والاستبداد بعبارة مكثفة هو التفرد بالسلطة او الرأي مع قمع المعارضة.

«والسلطة المستبدة هي تلك التي تمارس حكم الناس دون ان تكون هي ذاتها خاضعة للقانون، فالقانون في نظر هذه السلطة قيد على المحكومين دون ان يكون قيداً على الحاكم.. ومن هنا ففي وسع هذه السلطة ان تتخذ ماتشاء من اجراءات او مواجهة الافراد لمصادرة حرياتهم او ممتلكاتهم»[١١].

---

(٧) امام، د. امام عبد الفتاح، الطاغية.. دراسة فلسفية عن الاستبداد السياسي، سلسلة عالم المعرفة (١٨٣)، الكويت، المجلس الوطني، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، ص ٥٢ ـ ٥٧.

(٨) طبائع الاستبداد، مصدر سابق، ص ٢٣

(٩) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق ص ٨

(١٠) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(١١) ابو راس، د. محمد الشافعي، نظم الحكم المعاصرة، القاهرة، وعالم الكتب،

و«تكون السلطة استبدادية مادامت لا تخضع في تصرفاتها للقانون، ولا يجد الفرد قضاء يبطل تصرفاتها اذا صدرت على خلاف مايقضي به القانون القائم»[١٢].

ثم يستغرق الكواكبي في بيان صفات المستبد فيقول: ان المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه انه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على افواه الملايين.

المستبد: عدو الحق، عدو الحرية وقاتلهما.

المستبد: يتجاوز الحد مالم ير حاجزاً من حديد.

المستبد: انسان مستعد بالطبع للشر وبالإلجاء للخير.

المستبد: يود ان تكون رعيته كالغنم دراً وطاعة[١٣].

تاريخ الاستبداد

رافق الاستبداد الانسان منذ ان طمع الانسان في استغلال السلطة وتسخيرها لخدمة مصالحه ورغباته، فاستعبد الناس وأذل الرقاب، حتى ظهر وهو يمارس الاستبداد لوحة سوداء مرعبة تثير الاشمئزاز وتبعث على التشاؤم.

وقد ضج التاريخ بنماذج كثيرة من الطواغيت والمستبدين. فلو راجعنا الجانب الآخر للحضارات، الذي حاول بعض الباحثين اخفاءه والتستر عليه،

١٩٨٤، ص ٣١٨.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) طبائع الاستبداد، مصدر سابق، ص ٢٧ ـ ٢٨

سواء الحضارة السومرية او البابلية او الآشورية او الفرعونية او الصينية وغيرها، تجد ان تلك الحضارات قامت على جماجم بشرية، وارتقت سلم المدنية على حساب حرية الانسان وحيثيته، ولولا الاهدار المتواصل لكرامته لما شيدت حضارة مادية عبر التاريخ[١٤].ولما ظهرت حكومات مطلقة ذات سيادات واسعة غير مقيدة بدستور او قانون يحدد سلطتها.

واما في الدولة الاسلامية فلم يسجل الشيخ محمد حسين النائيني في كتابه اي مظهر استبدادي في سياسة الرسول (ص) او الخلفاء، واستشهد لنفي الاستبداد عن السياسة الاسلامية وتقبل الخليفة محاسبة الامة له في تلك الحقبة الزمنية بمشهد من سيرة الخليفة الثاني، عندما حاسبته الأمة لارتدائه حلة يمانية تستر بدنه بينما كانت حصة كل فرد من المسلمين اقل من ذلك. ولم يستجيبوا له في الخروج الى الجهاد وقالوا: «لاسمعاً ولاطاعة»، حتى اقنعهم بأنه ضم حصته الى حصة ولده عبد الله[١٥].

ولكن الشيخ ارجع الاستبداد في الدولة الاسلامية الى الحكم الاموي عندما صار الحكم وراثياً لايراعي شرط الكفاءة اللازمة في الحاكم الاسلامي. وقد استشهد برواية متواترة عن الرسول (ص): «اذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا دين الله دولاً وعباد الله خولاً»[١٦].

---

(١٤) لقراءة بعض الصور الاستبدادية في الحضارات القديمة راجع: مكاوي، د. عبد الغفار، جذور الاستبداد.. قراءة في ادب قديم، سلسلة عالم المعرفة (١٩٢)، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

(١٥) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق، ص ١٦.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٩.

فتحولت الدولة من «دولة ولائية الى دولة تمليكية مغتصبة لرقاب المسلمين»[17].

ومنذ ذلك الحين صار الاستبداد ظاهرة مألوفة في بلاد المسلمين،وممارسة يومية للحاكمين حتى ألف الانسان الاستعباد والخضوع الا الاحرار من اصحاب النفوس الأبية.

وقد انقسم الموقف تجاه الاستبداد فمن العلماء من وقف ضد الظاهرة الاستبدادية حتى تعرض للاضطهاد والتعذيب وربما الاستشهاد، ومن الفقهاء من كرس حياته لشرعنة الاستبداد وبلورة نظرية في الفقه السلطاني، لذلك ليس من الغريب ان تجد الفقه السياسي الاسلامي فقهاً سلطانياًعلى مر التاريخ؛ لأنه ولد في احضان الاستبداد، ووضع اساساً لشرعنة ممارسات السلطان وحكمه، الذي ترفضه قيم السماء والفطرة السليمة.

وقد تمادى بعض الفقهاء في تبرير الاستبداد حتى قبلوا بولاية السلطان الفاسق، وقالوا بوجوب الصبر على السلطان الظالم والفاسق ولايجوز الخروج عليه. فهذا ابن كثير ـ مثلاً ـ اكد ان يزيد بن معاوية «اماماً فاسقاً» لكنه يقول مع ذلك ان «الامام اذا فسق لايعزل بمجرد فسقه على اصح قولي العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من اثارة الفتنة، ووقوع الهرج، وسفك الدماء الحرام، ونهب الاموال، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن، وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد اضعاف فسقه كما جرى مما تقدم الى يومنا هذا...»[18].

لقد ضرب الخلفاء الامويون والعباسيون مثالاً في الاستبداد السلطاني،

---

(١٧) المصدر نفسه،ص ٢١.

(١٨) ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، دار الكتب العلمية، ج ٨، ص ٢٢٦

ومارسوا مع الامة سياسة استعبادية ظالمة لم تستنشق معها الامة نسيم الحرية ابداً. وكانت آلية حكمهم هي القوة واخماد المعارضة بالسيف. فهذا عبد الملك ابن مروان يعرض سياسته عند تولى الامر فيقول: «اما بعد، فلست بالخليفة المستضعف، ولا الخليفة المداهن، ولا الخليفة المأمون، الا اني لا اداوي ادواء هذه الامة الا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم،... الا ان الجامعة (القيد) التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي، والله لا يفعل احد فعله الا جعلتها في عنقه، والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه»[١٩].

ويقول الحجاج المعروف بجبروته وشراسته وفسقه: «والله لا آمر أحداً ان يخرج من باب من ابواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه الا ضربت عنقه»[٢٠].

وهكذا ظل الاستبداد الاموي ـ العباسي نموذجاً يحتذى من قبل الحكومات اللاحقة، ويمارس سطوته على الشعوب المقهورة حتى استساغ بعضها حياة الاستعباد والخضوع لسلطة المستبد دون ردة فعل تعيد للانسان حريته وحقه في تقرير مصيره.

واذا كان الاستبداد في زمان الامويين والعباسيين مقتصراً على الجانب السياسي فإنه تشعب فيما بعد الى استبداد فكري وثقافي وديني وابوي

---

(١٩) السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة الاسلامية، ص ٢١٨، وانظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، بيروت، دار احياء التراث، ج ٤، ص ٣٧٥

(٢٠) حمادي، د. محمد ماهر، الوثائق السياسية والادارية للعصر الاموي، ص ٥٥، عن كتاب الطاغية مصدر سابق، ص ٢١٠

وقبلي... حتى غدا الاستبداد فعلاً يومياً يمارسه صاحب السلطة (اياً كانت سلطته سياسية او معنوية).واصبح رفض الاستبداد عملاً اجرامياً يستحق عقوبة الاعدام او السجن والتعذيب، كما صار مروقاً عن الدين وتجاوزاً صريحاً لمقامات وسلطات مصطنعة.

اسباب الاستبداد

حاول الشيخ النائيني ان يغوص في عمق الظاهرة الاستبدادية بحثاً عن اسبابها، مستعيناً في قراءته لها بالقرآن وما جاء في كتاب نهج البلاغة. فعاد الى حقبة الفراعنة في ارض مصر، احد نماذج الحكم الاستبداديالتاريخية، وحاول من خلال القرآن الكريم ان يحدد اسباب الاستبداد، والدواعي التي دفعت فرعون ان يتعالى ويقول: ﴿**انا ربكم الاعلى**﴾.

تحدث القرآن الكريم عن علاقة فرعون مع قومه فاشار الى طرفي العلاقة (علاقة الامة بفرعون وعلاقة فرعون بالامة).

الاول: كانت علاقة الامة مع فرعون مصر علاقة عبادة وطاعة عمياء لمليكهم، ﴿**وقومهما لنا عابدون**﴾[٢١].

الثاني: علاقة السلطان مع الامة وهي علاقة الاستعباد وسلب الحرية والاضطهاد والقهر ﴿**وانا فوقهم قاهرون**﴾[٢٢].

هذا النوع من العلاقة لايؤمّن الأمن للنموذج الحضاري، ولايوفر المناخ الملائم لممارسة المساحة المتاحة من الحرية، وانما سيتحول الفرد الى

---

(٢١) سورة المؤمنون، الآية ٤٧.

(٢٢) سورة الاعراف، الآية ١٢٧.

مستلَب الارادة، مقموع في داخله، يألف الاستعباد، ويعجز عن اتخاذ اي قرار، وربما يتعثر او يسقط في منتصف الطريق اذا استنشق نسيم الحرية، او سُمح له بممارسة حياته الخاصة في معزل عن السلطة.

ان عقدة الاستبداد هي قابلية الفرد للاستعباد، وعجزه عن التحرر الداخلي، وعدم رفضه للظلم والقهر الذي يمارسه المستبد ضده، ويرضى ان يكون مستلَب الرأي والارادة. وهذا ما اشار له الامام علي (ع) في خطبته القاصعة، عندما تحدث عن اسباب «ابتلاء بني اسرائيل بالأسر والعذاب، فقال: (اتخذتهم الفراعنة عبيداً). ثم قال في تفسير هذه العبودية: (فساموهم العذاب وجرعوهم المرار فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة)...»[٢٣].

وفي نص آخر له: «كانت الاكاسرة والقياصرة ارباباً لهم يحتازونهم عن ريف الآفاق، وبحر العراق وخضرة الدنيا الى منابت الشيح»[٢٤].

ولهذا جاء على لسان النبي موسى (ع) في حواره مع فرعون ﴿تلك نعمة تمنها علي ان عبدت بني اسرائيل﴾[٢٥]، أي أأنك تمن عليّ لاتخاذك بني اسرائيل عبيداً ؟

اذاً كما ان طبيعة التعالي والشعور بالتفوق سبب لظهور الاستبداد كذلك خنوع الامة وقابليتها للاستعباد سبب آخر له.

---

(٢٣) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق، ص ٢١

(٢٤) علي، الامام،نهج البلاغة، تنظيم صبحي الصالح، قم،منشورات الهجرة، ص ٢٩٧، الخطبة ١٩٢.

(٢٥) سورة الشعراء، الآية ٢٢.

لهذا لم تقتصر ظاهرة الاستبداد على حقبة الفراعنة وانما هي سنة ممتدة مادام على وجه البسيطة انسان يتحرك. والقرآن الكريم ساق امثلة اخرى تؤكد دور الفرد والامة المستلَبة في تكريس الاستبداد كقوله تعالى:﴿اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله والمسيح بن مريم﴾[٢٦]. و«يظهر من الروايات الواردة في تفسير الآية المباركة انها فسّرت عبادة النصارى لاحبارهم ورهبانهم بالانقياد والطاعة لهم، والظاهر انهم كما قبلوا بارادتهم سياسة سلاطين الجور رغم انها تفضي الى ملكيتهم وعبوديتهم كذلك انصاعوا الى ارادة رؤساء المذاهب وتحكماتهم لانها جزء من الدين، لذا ذمت الروايات الشريفة المروية في [كتاب] الاحتجاج تغلب علماء السوء وعبدة الهوى وطلاب الدنيا والرئاسة»[٢٧].

آلية الاستبداد

عندما يضمن المستبد قابلية الناس للاستعباد يبدأ بقمع المعارضة، ويمارس الحكم السلطوي بعد ان يخلع على نفسه جميع الصفات الالهية، ويستخدم آلية محددة قوامها رفع شعار الدين واستغلال جهل الامة.

فالملاحظ ان المستبد يرفع شعار الدين ويرتدي عباءته[٢٨]، عند الضرورة، بعد ان يستغل جهل الامة، ويستعين ببطانة من الجهلاء.

فعلى الصعيد الاول نجد فرعون يرفع شعار الدين ضد موسى (ع)

---

(٢٦) سورة التوبة، الآية ٣١.

(٢٧) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق، ص ٢٧.

(٢٨) هذا عنوان احد فصول كتاب: الطاغية، مصدر سابق،ص ١٥٧.

ويوحي الى قومه بأن واجبه يطالبه بالدفاع عن الدين، فرفع شعار ﴿اخاف ان يبدل دينكم﴾[29]. في محاولة لاحتواء الحالة الجديدة الناتجة عن حركة موسى (ع) في المجتمع ودعوته قوم فرعون الى عبادة الله تعالى ونبذ عبادة الطاغوت.

وهذه الظاهرة كثيراً ما تشاهد في مجتمعات تشكو من تدني الوعي، وعدم القدرة على التمييز بين الحق والباطل، فتندفع في تأييد المستبد وممارساته الظالمة ضدها دون ان تشعر بوخز الضمير وتأنيبه.

واما على صعيد الجهل فإن «العوام هم قوة المستبد وقوته. بهم عليهم يصول ويطول، يأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب اموالهم فيحمدونه على ابقائه حياتهم، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته، واذا اسرف في اموالهم يقولون كريم، واذا قتل منهم ولم يمثل يعتبرونه رحيماً، ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التوبيخ، وان نقم عليه منهم بعض الاباة قاتلهم كأنهم بغاة»[30].

ان جهل الأمة يخدم مصالح السلطان ويستعديه عليهم، ووعي الأمة يفضح السلطان وسلوكه المنحرف، لهذا اكد السلاطين على بطانة الجهل خدمة لمصالحهم، وحاربوا تيارات الوعي والاصلاح، فهذا ناصر الدين شاه احد نماذج الاستبداد في العصر القاجارى، يقول: «انه يود ان يكون محاطاً بحاشية من الاغبياء لا يعرفون عن بروكسل هل هي مدينة ام نوع من الخس»[31].

---

(٢٩) سورة غافر، الآية ٢٦.

(٣٠) طبائع الاستبداد، مصدر سابق، ص ٤٩.

(٣١) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٠٣.

من هذا المنطلق دأب المصلحون على تأكيد العلم والوعي، وحثوا الامة على التعلم وعدم الغفلة عما يعمله السلطان. بينما اكد المستبدون دائماً على انهم ظل الله في ارضه، او انهم يمثلون ارادة الله في الارض. وهي شعارات افضبت الى ظهور الحكومات الدينية في العصور الوسطى، ولها جذورها في الحضارات السابقة. حتى ادعى السلطان انه الاله، او ابن الاله، او ظل الاله او سلطان الله، او يمثل مشيئة الله فى الارض.

وقد ردد بعض الخلفاء الامويين والعباسيين «ايها الناس: انما انا سلطان الله في ارضه». ويستفسر الوليد بن عبد الملك بعجب «ايمكن للخليفة ان يحاسب؟»[٣٢]. فاجاب اخوه يزيد ببساطة بأن «اتى بأربعين شيخاً فشهدوا له: ما على الخليفة حساب ولا عذاب»[٣٣].

شُعب الاستبداد

قسّم الشيخ النائيني الاستبداد الى شعبتين، سياسي وديني وقال: «من هنا تظهر جودة استنباط بعض علماء الفن عندما قسّم الاستبداد الى استبداد سياسي وآخر ديني، وربط كلاً منهما بالآخر،واعتبرهما توأمين متآخيين، يتوقف احدهما على وجود الآخر»[٣٤].

وكان السيد عبد الرحمن الكواكبي قد سبق الشيخ النائيني في هذا التقسيم فلعله يشير اليه في كلمته الآنفة.

---

(٣٢) تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص ٢٢٣

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

(٣٤) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق، ص ٢٧.

١ ـ الاستبداد السياسي:

تحدث الشيخ النائيني طويلاً عن خصائص وحالات الاستبداد السياسي، وقد كتب ذلك من وحي المعاناة وهو يعيش احلك حقب الاستبداد السياسي على يد السلطات القاجارية. حيث سجل التاريخ الايراني الحديث فترتين من الاستبداد (الكبير والصغير)، كلتاهما وقع في ظل سلطان قاجاري طاغوتي مستبد، استهان بالقيم وسحق الانسان بعد ان صادر حقه في تحقيق مصيره.

يطلق على المستبد اسماء شتى، فيسمى «الحاكم المطلق، والحاكم بامره، ومالك الرقاب، والظالم، والقهار، وامثال ذلك»[٣٥].

ولما كان هذا النوع من الحكم ينطلق من التفرد بالسلطة ويتعامل مع الوطن وسكّانه معاملة المالك في ممتلكاته الشخصية لذا سمى هذا النوع من السلطة: «استبداداً، وتحكماً واعتسافاً، وتسلطاً»[٣٦].

ويعتقد النائيني «ان انقياد الشعب الى الطواغيت وقطّاع الطرق لايعد ظلماً وحرماناً من اعظم المواهب الالهية، وهي الحرية، فحسب بل ان عبودية هؤلاء هي بنص كتاب الله المجيد واوامر المعصومين (ع) المقدسة من مراتب الشرك بالذات الاحدية تقدست اسماؤها، في المالكية والحاكمية والفاعلية لما يشاء، وعدم المسؤولية عما يفعل»[٣٧].

فالمرجع النهائي في الحكومات المستبدة هو السلطان وليس القانون،

---

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٩.

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٧.

فالسلطان فوق القانون، والقانون يمثل ارادته وسلطته بغض النظر عن ارادة الامة ومصالحها، ولذا نجد الممارسات الديموقراطية والبرلمانية في ظل الحكومات المستبدة ممارسات شكلية، تنتهي عند اعتاب ارادة الحاكم او الرئيس او الملك، ﴿لايسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[٣٨].

وانما يظهر الاستبداد ويتفاقم امره عندما يعطل القانون، ويبدأ الاستبداد عندما تنتهي سلطة القانون، فالبلاد التي تحترم قوانينها تختفي فيها المظاهر الاستبدادية، لهذا اراد الامام الخميني (رض) ان يستأصل كل تلك المظاهر عندما اكد على تطبيق القانون، واتهم من يتحايل عليه فقال: «اذا لم يطبق القانون في بلد من البلدان، فإن اولئك الذين تجاوزوا القانون هم ديكتاتوريون برزوا بوجه اسلامي، او بقناع الحرية، وما شاكل ذلك»[٣٩].

«جاء الانبياء جميعاً منذ بدء الخليقة والى الان من اجل تطبيق القانون، وجاء الاسلام لتطبيق القانون، وكان النبي والائمة والخلفاء جميعاً منقادين للقانون، مستسلمين له، فعلينا ان نعمل بالقانون ونستسلم له ما دمنا نتبع النبي والائمة»[٤٠].

ويقول الشيخ النائيني: «لم يكن غرض موسى الكليم وهارون عليهما

---

(٣٨) سورة الانبياء، الآية ٢٣، وانظر: المصدر نفسه للاطلاع على كيفية تصرف الحاكم المستبد بمملكته

(٣٩) الخميني، الامام روح الله، صحيفة النور، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الامام الخميني،ج ١٤، ص ٢٦٩.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

السلام بنص الكلام المجيد «فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم» الا تخليص رقاب بني اسرائيل من ذل عبودية الفراعنة»[٤١].

٢ ـ الاستبداد الديني:

يعد الاستبداد الديني «اخطر قوى الاستبداد، ويصعب علاجه الى حد الامتناع»[٤٢]، بل ان «الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني»[٤٣]، ويفترقان بأن الاول مبني على القهر والغلبة والتسلط بالقوة على مقدرات الامة، لكن الثاني يعتمد الخدعة وتزوير الحقائق، لذا ـ يقول الشيخ النائيني ـ اختلف التعبير عنهما في الآيات والروايات، حيث عبرت النصوص عن النوع الاول بـ ﴿عبدت بني اسرائيل﴾ او قول الامام علي (ع):«اتخذتهم الفراعنة عبيداً»، بينما عبرت عن النوع الثاني بـ ﴿اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله﴾ [٤٤].

فالأمة في الحالة الاولى مضطهدة، مغلوبة على امرها، تعاني بطش السلطان واجهزته القمعية، وتتحين الفرص للانقضاض عليه؛ لانها تعي حقيقته وترفض في داخلها جميع ممارساته اللاانسانية ضدها. واذا انطلت على الامة شعارات الطاغية ولو لفترة لكنها سرعان ماتكتشف الواقع وتتعبأ ضده.

---

(٤١) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر. سابق، ص ٢٨.

(٤٢) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق، ص ١٠٨.

(٤٣) طبائع الاستبداد، مصدر سابق، ص ٣١

(٤٤) تنبيه الامة وتنزيهالملة، مصدر سابق، ص ٢٧.

فالسياسي المستبد يفتقر الى الشرعية دائماً ولايستطيع ان يخلق مناخاً صالحاً لتفاعل الشعب معه، والامة تعي جيداً ان شرعيته تكمن وراء قوته، وتستعين بكافة وسائل العنف لتثبيت عرشه، فلايستطيع المستبد ان يوفر لشعبه القدر اللازم من الحرية؛ لأن حرية الشعب تعني رفض الاستبداد، وبالتالي التمرد على ارادة السلطان.

ثم ان العلاقة بين المستبد وشعبه تفتقر دائماً الى المقومات الكفيلة بالحفاظ عليها، فهي مهددة بالانهيار لأدنى سبب.

فعنصر الاجبار واضح الدلالة في الآية المباركة وقول الامام علي (ع)، اما في الحالة الثانية فان الصفة الطوعية والدافع الذاتي متجلٍّ فيها؛ لأن الامة تكون فيها مضللة ومخدوعة، وتحسب ان مايصدر من رجل الدين المستبد «من لوازم الدين بينما هي نزعة فردية يتظاهر بها المتلبسون بزي الرئاسة الروحية بعنوان الدين، والامة الجاهلة تطيعهم باندفاع وثقة، لشدة جهلها وعدم خبرتها بمقتضيات الدين وحقيقة هؤلاء»[٤٥].

ثمة حقيقة اخرى ان رجل الدين في جميع المجتمعات يرمز الى الدين نفسه، وتتعامل الشعوب مع ممارساته واقواله على انها جزء من الدين، فكل ما لدى رجل الدين مقدس في نظر الناس. حتى اتخذت الشعوب المسيحية الاحبار والرهبان ارباباً من دون الله. كما اعتبرتهم شعوب العصور الوسطى وسائط بين الله والانسان، حيث كان الكاهن ظل الله في ارضه، يتمتع بسلطة روحية واسعة تمثل ارادة الله تعالى في الارض لهذا جاء التأكيد «اذا صلح العالِم صلح العالم»، والعكس صحيح.

---

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

فالآية الكريمة عبرت بـ «اتخذوا» لتأكيد البعد الطوعي والارادي في اختيار العلاقة بينهم وبين رجال الدين.

ومنذ القدم تنبه الطغاة والمستبدون الى «ان الدين اقوى تأثيراً من السياسة، اصلاحاً وافساداً»[٤٦]، فاتخذوا من رجال الدين بطانة لهم لتقوية عروشهم، واضفاء الشرعية على ممارساتهم الخاطئة، وقمع المعارضة والتذمر، فضلاً عن ارتداء السلطان لعباءة الدين في كثير من الاحيان.

فكيف ترفع لافتة للمعارضة، او كيف يرفع شعار ضد السلطة وهي تستمد شرعيتها من رجل الدين، او علماء البلاط السلطاني ؟

وكان معاوية اول من استغل رجل الدين لتمرير سياسته التعسفية، فاتخذ بطانة مزيفة من رواة الحديث «امثال عمرو بن العاص ومحمد بن مسلم بن مخلد والمغيرة بن شعبة واشباههم من الذين كانوا يعدون في انظار العوام من الصحابة»[٤٧].

وفعلاً نجحت تلك السياسة وحققت اغراضها على مدى التاريخ، لاسيما في اعتياد الامة الاستبداد والظلم، وقبولها لسلطة المستبد الممتدة بعد معاوية الا في بعض الفترات المفعمة بالوعي، حيث رفض الاباة من امثال الامام الحسين بن علي (ع) مبايعة يزيد بن معاوية ووصفه بالفجور والفسق، ورأى حرمة مد يد المبايعة والعون للسلطان المستبد، فخلّده التاريخ رمزاً لرفض الطواغيت والحكام المزيفين.

بينما تكفي مراجعة اولية لمسار الفقه السياسي في التاريخ الاسلامي لتؤكد

---

(٤٦) طبائع الاستبداد، مصدر سابق، ص ٣٤.

(٤٧) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق، ص ١٠٨.

مصداقية استغلال المستبد لرجل الدين، وذلك عبر التنظير لفقه السلطان وليس لفقه الدولة الاسلامية من قبل بعض الفقهاء، بل جوّز هؤلاء الاستيلاء على السلطة بالقوة والغلبة وحرمان الشعب حقه في تقرير مصيره، وحرّموا الخروج على السلطان الفاجر.

فقد ذهب ابن كثير مثلاً ـ كما تقدم ـ الى ان يزيد بن معاوية كان «اماماً فاسقاً» لكنه يقول مع ذلك ان «الامام اذا فسق لايعزل بمجرد فسقه على اصح قولي العلماء بل ولا يجوز الخروج عليه...»[٤٨].

والامة حينما تفتقد الوعي وتعيش في دوامة من الجهل والتضليل لايمكن ان تميز بين ماهو من الدين وما هو ليس من الدين، وانما تنظر الى رجل الدين ماذا يقول وكيف يتصرف؟ لهذا ذم الائمة (ع) التقليد الاعمى لعلماء السوء؛ لأنه يفضي الى تغلغل السيادة الاستبدادية، السياسية او الدينية، وهذا سيقضي على جميع منابع الوعي لدى الامة، ويجعلها اسيرة التزييف المستمر للقيم والمبادئ؛ لأن الاستبداد الديني يسعى دائماً الى افراغ الدين من القيم الاصيلة، وتكرس الطقوس والشعائر التي تخدم مصالحه وتؤمن، بشكل غير مباشر، حماية كافية لسلطة المستبد السياسي؛ لذا فان الاصلاح في وسط الاجواء الدينية عمل شاق للغاية وطالما عانى منه رواد الاصلاح على مدى التاريخ.

ولعل اشد ما عانت منه الحركة الدستورية في ايران هو الاستبداد الديني. يقول الشيخ النائيني: «رفع الجهلة وطواغيت العصر وحاملي لواء الاستبداد الديني عقيرتهم ليعربوا عن تأييدهم للظلمة حتى النهاية، واعتبروا سلب صفة

---

(٤٨) البداية والنهاية، مصدر سابق، ص ٢٢٦.

(يفعل مايشاء والحاكمية المطلقة وامتلاك الرقاب وعدم مسؤوليته عما يفعل) عن الجائرين عملاً يتنافى مع الاسلام والقرآن.

وابتدعوا من وحي نزعتهم الاستبدادية، وبالتعاون مع الظلمة، مذهباً جديداً اسموه اسلاماً»[٤٩].

ولم يكتف هؤلاء بمساندة الحاكم المستبد وتجهيزه بالشرعية اللازمة باستمرار بل راحوا يلقون الشبهات بين افراد الشعب، ويصورون لهم حرمة التحرك الجديد ومنافاة الدستور مع الشريعة الاسلامية، او ان الدستور يعني مصادرة الشريعة او الغاء دورها في الحكم[٥٠].

ولما كان المتصدي لترويج هذه الشبهات هو الاستبداد الديني لذلك كانت مهمة ايقاظ الوعي مهمة شاقة وصعبة؛ لأنها تعني التشكيك بالدين (في نظر العامة من الناس) من خلال التشكيك بفهم عالم الدين للدين نفسه. والناس لا تتعرف على رأي الدين ـ عادة ـ الا من خلال علماء الدين. لذا فان الشرخ الكبير الذي حصل بين علماء الدين خلال الحركة الدستورية هو من افرازات هذه الاشكالية. وهي اشكالية التمييز بين الدين وفهم الدين الذي يقدمه علماء الدين؛ لذا فإن المسألة بحاجة الى درجة عالية من اليقظة والوعي حتي يمكن التعرف على الخط الفاصل بينهما.(اعرف الحق تعرف اهله)، والعكس ليس صحيحاً.

من هذا المنطلق بادر الامام الخميني (رض) ـ الذي عانى هو بدوره طويلاً من الاستبداد الديني ـ الى اغلاق الباب بوجه الاستبداد الديني وقطع الطريق

---

(٤٩) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق، ص ٦٠

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٦٢ وما بعدها.

على كل شخص تسول له نفسه الاستبداد بالحكم او الرأي، لاسيما وان نظام الحكم في الجمهورية الاسلامية في ايران ـ حالياً ـ يعتمد ولاية الفقيه مبدأ فيَ الحكم، والفقيه نافذ السلطة في هذا البلد. وانما يتأتى الاستبداد من فرض رأي الحاكم بالقوة والتعالي على القانون. والاستبداد يبدأ من حيث تنتهي سلطة القانون.

لذا سارع الامام في اكثر من مناسبة لتأكيد دور القانون في الدولة الاسلامية، وماهو موقف الحاكم الاسلامي من القانون (سواء كان نبياً او اماماً او فقيهاً او شخصاً في المجتمع، فقال «الحكم في الاسلام يعني القانون. والقانون هو الحاكم وحده في المجتمع، وعندما منحت صلاحيات محدودة للرسول الاكرم (ص) والولاة فانها صلاحيات من قبل الله. فكلما اراد الرسول بيان امر او ابلاغ حكم، كان ذلك تطبيقاً للقانون الالهي، ذلك القانون الذي لابد من اتباعه من غير استثناء»[٥١].

«حكومة الاسلام حكومة القانون، والحاكمية منحصرة بالله، والقانون هو امر الله وحكمه.

القانون في الاسلام يحكم كل فرد... والجميع ابتداء من الرسول الاكرم (ص) الى خلفائه والى الافراد جميعاً هم متبعون للقانون مابقي الدهر»[٥٢].

«حتى النبي الاكرم لم يخالف القانون، والله يقول لنبيه اذا خالفتنا في قول

---

(٥١) الامام الخميني وولاية الفقيه، ص ٥٧، نقلاً عن مجلة التوحيد العدد: ٩٧ ص ١١٢.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.

قطعنا و تينك.

الحكم هو القانون، لا حكومة لأحد سوى القانون الالهي، لا حكومة لفرد من الافراد، لا الفقيه ولا غير الفقيه. الجميع يعمل في ظل القانون وينفذونه، والجميع يطبق القانون، الفقيه وغير الفقيه»[٥٣].

لذا نجد دستور الجمهورية الاسلامية قيّد جميع السلطات، بما في ذلك سلطة الفقية، وجعل استمرار سلطته مرهوناً بكفاءته.

ولعل في سيرة الرسول (ص) وسيرة الامام علي (ع) مايحطم كل تطلع استبدادي يراود النفوس الضعيفة العاجزة عن التعايش مع الآخر، لشدة تعاليها وغرورها. رغم ان سلطتيهما سلطة الهية، وعلمهما لا يدانى، لكن مع ذلك نجد الرسول (ص) يشاور اصحابه في اخطر حدثين هما معركة بدر ومعركة احد، ويستجيب لرأي الصحابة في كليهما مع علمه بخطئهم في الثانية (اي الخروج من المدينة لمقاتلة قريش)، وقد خسر المعركة عسكرياً فعلاً.

والامام علي (ع) يقول: «من استثقل الحق ان يقال له او العدل ان يعرض عليه كان العمل بهما عليه اثقل، فلا تكفوا عن مقالة بحق او مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق ان اخطئ، ولا آمن من فعلي، الا ان يكفي الله من نفسي ما هو املك به مني. فانما انا وانتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره...»[٥٤].

ان منشأ الاستبداد الديني ليس هو الاسلام او تعاليمه او سيرة الرسول الاكرم (ص) او الائمة (ع) وانما سببه التطلع لتحقيق مآرب دنيوية، و تكريس

---

(٥٣) اسلام ناب، در كلام وبيان امام خميني (بالفارسية)، ص ١١١.

(٥٤) نهج البلاغة، مصدر سابق، الخطبة: ٢١٦.

الدين لمصالح شخصية، او نقص في الوعي او فهم مشوّه للدين.

قوى الاستبداد

ذكر الشيخ النائيني في خاتمة كتابه الآنف الذكر مقصدين، خصص الاول منهما لبيان قوى الاستبداد، والثاني كرسه لمعالجة تلك القوى. اما قوى الاستبداد فهي:

أ ـ الجهل بواجبات وحقوق السلطان:

فالجهل هو مأساة الانسان وقصة معاناته مع الطغاة، ولولا الجهل لما اشرك الانسان الطواغيت في عبادة الله تعالى، ولما فقد حريته وفرط بحقوقه»[٥٥].

ولولا الجهل لما مرت المؤمرات المتواصلة على الانسان من اجل اضطهاده وقمعه وصيرورته مسلوب الارادة، مهضوم الحقوق، يسكن الى الدعة ويستأنس من الدين بالخرافة والاسطورة، ويعجز عن النهوض لاكتشاف انسانيته وتأكيد ذاته في المجتمع.

ب ـ الاستبداد الديني.

ج ـ التزلف للسلطان:

ان اعوان الظلمة اشد من الظلمة على الامة، ولولا بطانة السوء التي يلتف بها السلطان لما استطاع ان يتغلل نفوذه داخل المجتمع. ولعاش عزلة تقضي على جميع وجوده. وقد تحدث الشيخ النائيني طويلاً عن التزلف للسلطان[٥٦].

---

(٥٥) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق، ص ١٠٥.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

د ـ القاء الخلاف في صفوف الشعب:

اكد النائيني على دور الفرقة في تحقيق اغراض الاستبداد، واستشهد بقوله تعالى ﴿ ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ﴾[٥٧]. فلولا سياسة تقطيع الاوصال التي اتبعها فرعون لما علا في الارض واستعبد قومه[٥٨].

كما استشهد الشيخ بخطبة للامام علي (ع) وهو يحذر المسلمين من الوقوع بما وقعت به الامم السابقة، وهو التزلف للظلمة والقاء الخلاف بينهم[٥٩].

هـ ـ الارهاب والاضطهاد:

وهو سلاح الطغاة والمستبدين على طول التاريخ.

و ـ النزعة الاستبدادية المتأصلة في نفوس الطغاة.

ز ـ الامكانات المادية والعسكرية.

ثم قدم الشيخ النائيني في المقصد الثاني من المقدمة حلولاً للقضاء على تلك القوى وتجفيف منابعها.

ثالثاً ـ الدولة الدستورية

يعتقد الشيخ محمد حسين النائيني ان الدولة ضرورة انسانية آمن بها جميع المسلمين وجميع العقلاء[٦٠].

---

(٥٧) سورة القصص، الآية ٤.

(٥٨) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق ١١٢.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ١١٣.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٦.

ويمكن حصر وظيفة الدولة ـ برأيه ـ في اصلين، هما:

١ ـ حفظ الامن الداخلي وحماية القانون وتحديد الحقوق والواجبات وتحقيق مصالح الشعب[٦١].

٢ ـ حماية الوطن من تدخل الاجانب، وتهيئة القوة اللازمة من معدات واجهزة عسكرية لحفظ الوطن او الدفاع عن «بيضة الاسلام» كما في لغة الشريعة[٦٢].

وانما جاءت الدولة منذ تأسيسها لهذا الغرض، وقد سارت الشريعة المطهرة على ذلك بعد اكمال نواقصها واضافة شروط وقيود جديدة[٦٣].

ثم ان الحكم نوعان:

أ ـ الاستيلاء والغلبة:

وهنا يتعامل السلطان مع مملكته تعامل المالك مع اشيائه وممتلكاته، ويكون الفرد في ظله مستلب الارادة والحرية والكرامة، وقيمته في كونه عبداً لسيده يفعل فيه مايشاء، ولايعلم اي شيء عما يدور حوله وهذه السلطة «عبارة اخرى عن الربوبية والالوهية»[٦٤].

ب ـ الدولة الدستورية:

تقتصر وظيفة الدولة في هذا النوع على اداء الواجبات العامة ورعاية مصالح الشعب، والحاكم مقيّد بتلك الوظائف، وليس له الحق في تجاوز

---

(٦١) المصدر نفسه، ص ٧.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٧.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٨.

(٦٤) المصدر نفسه،ص ١١.

القانون او مخالفة الدستور. وحينئذ لا مالكية له ولا يفعل مايشاء او يحكم كما يريد.

وحقيقة هذا القسم «الولاية على اقامة الوظائف الراجعة الى تنظيم وحفظ المملكة وليس حفظ المالكية..»[٦٥]

ثم ان الشعب هنا شريك السلطان ـ حسب رأي النائيني ـ في القضايا المالية ونسبتهم الى السلطان واحدة، والمتصدون امناء على مصالح الشعب.

ويسمى هذا النوع من السلطة بالسلطة المقيدة، المحدودة، العادلة، المشروطة، المسؤولة والدستورية[٦٦].

كما ان الشروط المفترضة في الحاكم الدستوري لاتلغي دور الامة في الحكم، بل ان دورها سيكون اقوى واوسع من خلال تقديم الاستشارة اللازمة للسلطان ومراقبته ومحاسبته، اضافة الى ان المعارضة في الدولة ستتمتع بحرية اوسع في ابداء الرأي والاعتراض على خطة الحكومة[٦٧].

النظرية السياسية

يمكن ان نشير الى ملامح النظرية السياسية لدى الشيخ محمد حسين النائيني بما يلي:

١ ـ ان حقيقة السلطة هي الولاية على النظام[٦٨]، «وحقيقة السلطة من وجهة

---

(٦٥) المصدر نفسه.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٦٨) المصدر نفسه، ص ١٢.

نظر الاسلام، وربما جميع الشرائع والاديان، هي من باب الامانة، وولاية احد المشتركين في الحقوق العامة، من دون اي مزية للشخص المتصدي»[69].

والحكومة تقوم على اساس مشاركة الشعب، اضافة الى قاعدة الولاية والامانة، ومشورة العقلاء والاخذ برأي الاكثرية، واعتماد مبدأ مسؤولية الحاكم امام الشعب[70].

٢ ـ اشتراط العصمة في الولي وفق «مذهبنا نحن الامامية»[71]. وعليه فالامور السياسية وشؤون الدولة والحكم هي من وظائف الامام المعصوم (ع).

٣ ـ الامور السياسية في زمن الغيبة (اي غيبة الامام المعصوم) من وظائف الفقيه، النائب العام للامام المعصوم، وذلك ان هناك وظائف حسبية لايرضى الشارع باهمالها «ونيابة الفقهاء في عصر الغيبة ثابتة فيها، وان لم تثبت نيابتهم العامة في جميع المناصب، ولما كنا نجزم بعدم رضا الشارع المقدس باختلال النظام وذهاب بيضة الاسلام، بل ونجزم ان الحفاظ على البلدان الاسلامية والحفاظ على نظامها هي من الامور الحسبية، لهذا فان ثبوت نيابة الفقهاء والنواب العامين في اقامة الوظائف المذكورة في عصر الغيبة من ضروريات المذهب»[72].

٤ ـ اذا تعذر على الفقهاء اقامة الدولة في زمان الغيتة يجب العمل وفق اصول ثلاثة، لعدم جواز اهمال امر الدولة والحكم، «ويجب تحويل السلطة

---

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٧١) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٤٦.

الجائرة من النوع الاول الى النوع الثاني»[٧٣]. اي تحويل السلطة الجائرة الى سلطة دستورية تحترم القوانين وتحفظ للشعب حقوقه ومقدراته.

الاصل الاول: تدوين دستور يضمن ما للامة من حريات وحقوق، ويتكفل بيان واجبات ووظائف الحاكم، وتحديد مايحق التدخل فيه عن غيره[٧٤].

الاصل الثاني: تشكيل مجلس شورى وطني «يتكون من عقلاء وعلماء البلاد، الحريصين على مصلحة الامة، العارفين بالحقوق الدولية العامة، والخبراء بوظائف ومقتضيات سياسة العصر»[٧٥].

وللمجلس حق الاشراف على عمل الدولة ومحاسبتها والتأكد من التزامها بالقانون، والحؤول دون تجاوز الدستور، او التفريط بالواجبات الملقاة عليها بموجبه.

واعضاء المجلس يمثلون الامة التي انتخبتهم، لذا فهم مسؤولون امام «كل فرد من افراد الامة»[٧٦].

الاصل الثالث: يشتمل المجلس على عدد من المجتهدين او من ينوب عنهم لاضفاء الشرعية على اعمال المجلس والقرارات الصادرة عنه[٧٧].

وهذا الاصل يفترض وفقاً لمتبنيات مذهب الامامية، اما على

---

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ١٥.

المذاهب الاخرى فان انتخاب اهل الحل والعقد كاف لتحقق مشروعية المجلس النيابي[78].

ومن جهة اخرى فإن الهيئة ستقوم مقام العصمة وفقاً لمذهب مدرسة اهل البيت (ع) وتقوم مقام العلم والملكة والتقوى على مذهب مدرسة اهل السنة[79].

مشروعية المجلس النيابي

بعد ان بين الشيخ النائيني نظريته في الحكم تصدى للرد على الاشكالات المطروحة من قبل انصار المستبدة، الذين كانوا يرون حرمة تدوين الدستور لانه بدعة ـ كما يقولون ـ تنافي القرآن والشريعة، ويقع في مقابل القرآن. و الالتزام بالدستور بدعة اخرى، لعدم مشروعيته، ثم ان معاقبة من خالفه تعد بدعة ثالثة [80].

وهذه الشبهات اثارها انصار المستبدة وعلى رأسهم الشيخ فضل الله النوري وقد اثارت جدلاً واسعاً وتسببت في بلبلة الاذهان والتشكيك في اصل شرعية الدستور والمجلس البرلماني، حتى انعكست على الاوساط العلمية في النجف الاشرف، غير ان الشيخ النائيني اجاب عليها دون ان يشير الى شخص يعينه[81]. واجاب عنها اجابات علمية بعد ان سفّه الشبهات، واثبت

---

(٧٨) المصدر نفسه، ١٥.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٨١) تشيع ومشروطيت، مصدر سابق، ص ٢٧٨.

عدم قدرتها على الثبات من الناحية العلمية، وقال ان «حقيقة هذه المغالطات تشبه قصة رفع المصاحف من قبل الشاميين، وقول الخوارج لاحكم الا لله، وربما هي اكبر من كلتا المغالطتين»[٨٢].

ثم اخذ الشيخ النائيني يرد على تلك الشبهات واحدة تلو الاخرى، ويمكن ايجازها:

١ ـ من البديهيات الاسلامية حرمة اسناد شيء الى الشارع بعنوانه تشريعاً، او حرمة نسبة حكم ما الى الشارع، اما غير ذلك «من اللازم او التزام سواء على الصعيد الفردي او الاجتماعي فلا يعد بدعة او تشريعاً»[٨٣]. كتنظيم الانسان لاوقاته واعماله او تقرير المجتمع قرارات تحفظ الامن العام له، فلا يعد تشريعاً او بدعة في الدين[٨٤].

٢ ـ قد تجب بعض الامور وجوباً بالعرض وليس بالذات، ويلزم الاتيان بها اذا تعلق بها نذر او عهد او يمين، او كانت مقدمة لواجب[٨٥].

واذا اتضح هذان الامران اتضح وجوب تدوين الدستور، لعدم وجود من يدعي ان ما جاء به الدستور هو من عند الله تعالى، ولا يقصد به ان يكون شريعة في مقابل الشريعة الاسلامية، وانما هو صيغ قانونية تكفل لنا عدم استبداد المتصدين لادارة الحكم في البلاد، وتحدد الحقوق والواجبات وتحفظ مصلحة الشعب.

---

(٨٢) تنبيه الامة وتنزيه الملة، ص ٧٤.

(٨٣) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٨٤) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٧٤.

ثم انحى باللائمة على من يروّج لهذه الشبهات ويقول: «هل الامور قد اختلطت عليهم فلا يفرقون بين حقيقة التشريع والبدعة[٨٦].

ثم لماذا لم يعترض هؤلاء على القوانين العسكرية الموضوعة بايحاء من الروس، وقد طبقت لضرب احلام الشعب وتحطيم سعادته ؟[٨٧].

٣ ـ قالوا بعدم جواز تدخل الامة في امر السياسة والحكم الذي هو شأن من شؤون الامام المعصوم (ع).

فاجاب الشيخ النائيني بان العصر ليس عصر المعصوم (ع)، وما يبغيه ممثلو الشعب هو «الوقوف بوجه الغاصبين والحد من صلاحياتهم واختياراتهم»[٨٨].

٤ ـ ان ادارة شؤون الامة من الامور الحسبية وتدخل في باب الولاية، وهي من شؤون نواب المعصوم (ع) والمجتهدين العدول، وليست من شأن عامة الناس، فانتخاب اعضاء المجلس النيابي يعد عبثاً وعملاً غير صحيح، وينتج عنه تصدي من لا يحق له التصدي فيكون تصديه اغتصاباً لهذا المقام[٨٩].

وفي معرض جوابه ذكر الشيخ النائيني عدة امور:

أ ـ لا يلزم في التصدي للامور الحسبية وجود المجتهد بل يكفي اذنه في ذلك .

ب ـ عدم تمكن المجتهدين من اقامة الامور الحسبية لايسقطها بل تنتقل الى عدول المؤمنين ثم الى عامة الناس الى ان تصل الى فسّاق المسلمين، وهو

---

(٨٦) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٨٧) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٧٨.

من الامور المجمع عليها من قبل فقهاء الامامية.

ج ـ لجميع الشعب حق الاشراف والمحاسبة والمشاركة في اعمال البلاد، لأنه مكلف بدفع الضرائب والحقوق المالية.

د ـ مقتضى مبدأ الشورى مشاركة الامة في الحكم.

هـ ـ تشارك الامة في الحكم من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

و ـ يجب علينا العمل بالصيغة الدستورية في زمن غيبة الامام المعصوم (ع)، باعتبارها افضل صيغة قادرة على اداء الوظيفة المناطة به، بعيداً عن الاستبداد والتسلط والاضطهاد.

ولو قام الفقهاء بتعيين هيئة مشرفة على اعمال الحكومة بدلاً عن الدستور والمجلس النيابي، فان السلطات الحاكمة ستجهض المشروع وتقضي عليه من خلال ممارساتها التعسفية ضد لجنة الاشراف[٩٠]. اما لو كانت المشاركة عامة من قبل الشعب فسوف يتعذر على الدولة القيام بأي عمل تعسفي ضده.

٥ ـ ان مصطلح الوكالة الشرعية لا ينطبق على الهيئة المشرفة، فلا تصح وكالتهم عن الامة في الاشراف والرقابة.

غير ان الشيخ النائيني اثبت بالادلة الكافية ان الوكالة تعني مطلق التسليم والايكال. ثم اضاف: لما ثبت وجوب تعيين هيئة للاشراف والمراقبة فإن البحث في انطباق مصطلح الوكالة عليها ام لا، لا يعدو كونه بحثاً لفظياً، لا طائل منه[٩١].

٦ ـ عدم شرعية الاخذ برأي الاكثرية، وان هذا الامر بدعة.

---

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٩١) المصدر نفيه، ص ٧٩ ـ ٨٠.

اجاب الشيخ النائيني: تقدم ان هذا ليس بدعة. كما ان ادلة الشورى تقضي الاخذ بآراء الاكثرية وباقوى المرجحات، ثم ان الاخذ بما اجمع عليه اكثر العقلاء ارجح من الاخذ بالشاذ، كما هو المستفاد من عموم التعليل في رواية (مقبولة) عمر بن حنظلة[٩٢].

وقد دلت سيرة الرسول (ص) على الاخذ برأي الاكثرية في غزوة احد مع خطأ الصحابة، وفي غزوة الاحزاب، كما اخذ الامام علي (ع) برأي الاكثرية في عملية التحكيم. وقد اكد الامام في خطبته انه اتبع فيه رأي الاكثرية[٩٣].

بعد هذا نجد الشيخ النائيني يعتصر ألماً من شدة ممارسات الاستبداد الديني وتزويره للحقائق ودعمه للاستبداد السياسي، فيقول: ان هذا النمط من اساليب التزوير والخداع يعجز عن الاتيان بها دهاة العرب.

وبعد ان خابت ظنون كلتا الشعبتين الاستباديتين، السياسية والدينية، في تحقيق اهدافها، قدموا على هدر دماء واموال واعراض المسلمين، واحيوا بذلك سيرة جنكيزخان[٩٤].

شروط ووظائف اعضاء المجلس النيابي

يضع الشيخ النائيني شروطاً ثلاثة لعضوية المجلس النيابي لكي يتحقق الهدف من وجود المجلس، أي الحد من الظاهرة الاستبدادية، وحماية حقوق

---

(٩٢) الصدوق، محمد بن الحسين، من لايحضره الفقيه، بيروت، مؤسسة الاعلمي، ج ٣، ص ٩، الحديث: ٣٢٣٣.

(٩٣) تنبيه الامة وتنزيه الملة، مصدر سابق، ص ٨٠ ـ ٨٣.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ٨٤ ـ ٨٥.

الامة، وذلك عبر المراقبة والمحاسبة والاشراف المباشر على عمل الدولة والمشاركة في سن القوانين بعد التأكد من عدم مخالفتها للشريعة الاسلامية.

اما الشروط فهي:

أـ الخبرة السياسية الكافية، بما في ذلك السياسة الخارجية، اضافة الى الاحاطة بمقتضيات العصر.

واذا اضفنا الى ذلك فقاهة المجتهدين المنتخبين تتكامل الرؤية العلمية في مجال الادارة السياسية للامة[٩٥].

ب ـ النزاهة من البخل والجبن والحرص وحب الدنيا والطمع، لكي لا يتحول الاستبداد الشخصي الى استبداد جماعي[٩٦].

ج ـ الحرص على مصلحة الدين والوطن والدولة والامة واعراض واموال الشعب[٩٧].

ثم اكد الشيخ النائيني على مساواة غير المسلم بالمسلمين في الانتخابات لاشتراكه معهم في دفع الضرائب من جهة ولكي يتحقق الشمول في الانتخابات من جهة اخرى[٩٨].

في نهاية المطاف شدد الشيخ النائيني على احكام السيطرة في قبول المرشحين، ودعا القائمين على امر الانتخابات الى تجنب المحسوبية والمنسوبية. وعلى الجميع ان يعي الانتخابات واهدافها وماهي شروط

---

(٩٥) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ٨٩.

المرشح الصالح للانتخاب[99].

اما وظائف اعضاء المجلس النيابي فيجملها النائيني بمايلي:

أ ـ ضبط وتنظيم الموارد المالية للدولة والاشراف على موارد صرفها، خشية ان تكون فريسة الطواغيت، ومأرب مصالحهم الشخصية.

فحفظ النظام وحماية بيضة الاسلام يتوقف على وفرة الموارد المالية للدولة. لذا يجب الاعتناء بها بشكل متميز، وقطع ايدي المتلاعبين من النيل منها «فالناهبين للثروات من المعممين والمتطربشين لم يكتفوا بالقدر المحدد لهم؛ لأنهم اعتادوا على النهب والتطاول على اقتصاد البلاد»[100].

كما حث جميع افراد الشعب على اداء الفرائض المالية لتوفير المال اللازم لكي تؤدي الدولة وظائفها بشكل صحيح ومتوازن[101].

ب ـ الاشراف على وضع القوانين والتأكد من مطابقتها للشريعة الاسلامية[102].

ج ـ تحديد الوظائف العامة لسلطات الدولة بشكل يسمح لها بأداء اعمالها بشكل صحيح.

ويظهر من الشيخ النائيني ايمانه بانفصال السلطات الثلاثة بعضها عن البعض الآخر (السلطة التشريعية، السلطة التنفيذية، السلطة القضائية).

---

(٩٩) المصدر نفسه،ص ٩٠.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٩٧ ـ ١٠٢.

مبادئ الحكم

وضع الشيخ محمد حسين النائيني ثلاثة مبادئ للحكم، نشير لها بإيجاز هي:

١ ـ الحرية:

تحدث الشيخ طويلاً عن الحرية في الاسلام واعتبرها «من اعظم المواهب الالهية لهذا الانسان، وكان اغتصابها من بدع بني العاص، الشجرة الملعونة وكان اهم هدف للانبياء هو استنقاذ الحرية من الغاصبين»[١٠٣].

وقد عرّف الحرية: بانها «تعني تحرير الامة من ربقة الجائرين»[١٠٤]. وحقيقة استبداد الدول الغاصبة هي: «اغتصاب الحرية، واما الدستورية فتعني استرداد الحرية من الغاصبين»[١٠٥].

واعتبر الاستفهام والاعتراض والنقد والتعبير عن الرأي جزءاً من حرية الشعب. وعلى السلطات ان توفر الحرية والامن اللازمين لكي يعبر الشعب عن مشاعره وآرائه بالدولة. وينبغي ان يكون الفرد فاعلاً في المجتمع من خلال حرية النقد وحرية الرأي دون ان تمس كرامته او يعرّض الاضطهاد من قبل السلطات[١٠٦].

فالشيخ النائيني يربط بين الاستبداد والحرية ويعتبرهما طرفي نقيض،

---

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٣٦ـ٣٧

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ١٢.

فالحرية لاتجتمع مع الاستبداد، والعكس صحيح. لهذا يسعى المستبد دائماً الى قمع الشعب ومصادرة حريته لحماية مملكته. ولما اصر الشعب ابان الحركة الدستورية على تحقيق الحرية وارساء دعائم السلطة الدستورية استنجد المستبد السياسي بمن يساعده على تشويه مبدأ الحرية واظهارها بمظهر غير اسلامي. فاثار حماة المستبد شبهات واهية لكنها ترتدي رداء الدين فأضلّت شريحة من المجتمع.

ومن جملة الشبهات المثارة على الحرية انها تفضي الى تلوث المناخ الاسلامي بالكفر والالحاد من خلال تعبير غير المسلمين او الملاحدة عن آرائهم وافكارهم.

او ان الحرية ستساعد على اشاعة المنكرات لحرية الفرد في ممارسة العمل الذي يرغبه.

كما جعلوا من لوازم الحرية تحدي القيم الاسلامية، وخروج النساء المسلمات سافرات،باعتباره حقاً من حقوقهن.

ثم ضرب المستبدون على وتر حساس وقالوا ان الحرية تعني الاختلاف والتنازع ومن ثم تشتت الامة وانقسامها.

وفي آخر محاولة لهم الصق المستبدون الحرية بالمسيحية: وقالوا: ان الحرية نزعة مسيحية منشؤها الديانة المسيحية فهي غريبة عن الاسلام ومبادئه التي تكرس الاستبداد وتبغض الحرية[١٠٧].

غير ان الشيخ النائيني وهو يعي محاولات المستبدين في تشويه «اسمى هبة الهية» وهي الحرية، لن ينحني لتلك التخرصات بل راح يردها بلباقة

---

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٣٧، ٦٤ـ٦٦.

علمية واعية. ثم اجاب على الشبهات الآنفة: بان المظاهر اللااسلامية في الدول الغربية ناشئة عن عدم تحريم هذه الدول لتلك الممارسات وانها غير محرمة في دياناتهم المحرفة لا لأنهم استبداديون او دستوريون، فهذه مغالطة اريد بها تضليل الشعوب المسلمة[١٠٨]. كما ان التعددية هي الاخرى ناتجة عن اختلاف الرؤى وليس لها علاقة بالدستورية او الاستبدادية[١٠٩].

ثم اكد الشيخ النائيني ان الحرية والتحرر من عبودية الاستبداد مسألة انسانية قبل ان تكون دينية، وقد ناضلت الشعوب منذ القدم لاسترجاع حريتها ثم جاء الانبياء والمرسلون لاستنقاذ الناس من اسر الطغاة. ولم تقاتل الشعوب من اجل الخروج عن عبادة الله تعالى او التنكر لوحدانيته لكي يثير المغرضون شبهاتهم في وجه الحرية، وانما نشد المستضعفون في الارض الخلاص من نير عبودية الطواغيت والظلمة. فحربهم كانت ضد الظلمة وليس ضد الله تعالى او ضد الدين.

والشعوب المسيحية من الشعوب التي استهوتها الحرية فعانت صراعاً مريراً مع الاستبداد بجميع انواعه، واستطاعت اخيراً ان تحقق حريتها.

ثم اشار الشيخ الى ان جميع الشعوب تعي هذه الحقيقة غير ان بعضها نجح في نيل هدفه والبعض الآخر فشل لا لأنه لا ينشد الحرية او لا يعي قيمتها الحضارية وانما قساوة الظروف حالت دون ذلك. وضرب لذلك مثالاً بالشعوب الروسية والاوربية، وقال ان كلا الشعبين «الاوربي والروسي» مسيحي الديانة، وكلاهما ناضل على طريق الحرية، لكن الشعب الروسي واجهته قساوة

---

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٦٣.

الحكومة الجائرة آنذاك مما تسبب في استعباده وذله، اما ظروف الدول الاوربية فهي ظروف اخرى استطاعت الشعوب ان تتجاوز تحدياتها لتصل الى الهدف الاسمى[١١٠].

ثم يقول ان عبدة الظلمة يعدون التحرر من عبودية الظلمة مروقاً عن الدين، واعتبروا الدستور ديناً ومذهباً جديداً، وسعوا الى تعميق روح الذلة في نفوس الشعوب لكي يمارس المستبد سلطانه عليهم، كل ذلك في مقابل القرب من السلطان ونيل جوائز الطواغيت. ولو على حساب مصلحة الشعوب المضطهدة[١١١].

٢ ـ المساواة:

المساواة هي المبدأ الثاني بل هي من اشرف المبادئ والقوانين التي تنادي بها السياسة الاسلامية من مبادئ الحكم لدى الشيخ النائيني.

وهي لا تعدو عنده تطبيق الاحكام والقوانين على جميع الافراد بالسوية. والدستورية بما انها تشتمل على مجموعة قوانين جاءت لبيان احكام خاصة او عامة، فالشعب امام الدستور بالسوية[١١٢].

غير ان الاستبداديين حاولوا تشويه مفهوم المساواة من خلال القاء بعض الشبهات مفادها ان المساواة تفضي الى مساواة المسلمين مع اهل الذمة في الاحكام الشرعية (كالميراث والنكاح والقصاص)، كما تفضي الى مساواة

---

(١١٠) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(١١١) المصدر نفسه

(١١٢) المصدر نفسه، ص ٧٠

المكلفين بغيرهم، ومساواة العقلاء بالمجانين وهكذا[113].

غير ان الشيخ اكد ان هذه الشبهات بعيدة عن مسألة الاستبدادية والدستورية، وبعيدة عن مفهوم المساواة ايضاً، فالاسلام يراعي الفوارق المذكورة واعتبرها اساساً لاختلاف الاحكام، وهي من الضروريات التي آمن بها الدين كما آمنت بها جميع شعوب العالم. اما حقيقة المساواة ـ كما مر ـ فهي الغاء الامتيازات والفوارق عند تطبيق الاحكام والقوانين، فجميع المشمولين بهذا الحكم المحدد سواسية في تطبيقه وفي تحمل التبعات المترتبة على عدم تنفيذه، ولا تعني المساواة ادخال غير المشمولين بهذا القانون في احكامه. كما صوّر المستبدون ذلك[114]. فالمساواة تريد ان تقضي على الامتيازات الممنوحة لبعض افراد الشعب محسوبية ومنسوبية، تلك الفوارق اللاانسانية التي منحتهم اولوية مزورة في الحقوق والواجبات فخلقت فجوة عميقة بين افراد الامة الواحدة، ولدت حساسية مفرطة ازاء الفوارق المفتعلة.

يقول الشيخ النائيني: ان يقظة الغيورين من المسلمين تهدف الى تحرير الرقاب من استرقاق الجائرين وتحقيق المساواة مع الحاكم، ومشاركته في خيرات البلاد وقدراته، غير ان شعبة الاستبداد الديني الخبيثة رأت من الواجب عليها باسم الدين الاحتفاظ بشجرة الاستبداد الخبيثة، مخالفين بذلك قوله تعالى: «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون»[115].

---

(١١٣) المصدر نفسه، ص ٣٧

(١١٤) المصدر نفسه، ص ٦٩ـ٧٠

(١١٥) سورة البقرة، الآية ٤٢

وصاروا من الذين نبذو كلام الله وراء ظهورهم[116].

واضاف: ان سعادة الامة تتوقف على هذين الاصلين: الحرية والمساواة لهذا قاومتهم شعبة الاستبداد الديني بقوة.

وحتى لو افترضنا ان الشعب اعمى واصم وجاهل بمقتضيات الدين وضرورات المذهب، وغافل عن المطالبة بحقوقه وتحرره من الربقة الملعونة ومساواته مع الغاصبين، وذاهل عن معنى حياته، قانع ان يكون مسخراً لرفاهية الطفيليين من المعممين والمتطربشين، ومهما بلغ به الجهل فقصّر عن ادراك علاقة ذلك بالاستبداد والشوروية،لكنه يفهم جيداً انه هدف المسيرة البطولية للعقلاء والعلماء الغيورين على الوطن هي استنقاذ الحرية والمساواة[117].

ان رواية الاحتجاج المتقدمة تصف علماء السوء ولصوص الدين ومضلي ضعفاء المسلمين من شعبة الاستبداد الديني بانهم «اضر على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد على الحسين»[118].

ثم تصدى الشيخ النائيني لبيان اقسام المساواة لكنه اقدم على استدعاء امثلة تاريخية بدلاً من تعريفها لفظياً لتكون اكثر دلالة على المعنى المطلوب، لان تلك الامثلة تخترق زخماً كبراً من الشرعية لدينية. اما الاقسام فهي:

---

(١١٦) المصدر نفسه، ص ٣٦

(١١٧) المصدر نفسه، ٣٧

(١١٨) المصدر نفسه، ص ٣٨

أـ المساواة في الحقوق:

نستفيد ذلك من قصة زينب بنت الرسول حينما ارسلت حليها وزينتها التي ورثتها من امها خديجة (ع) لتفك بها اسر زوجها ابن العاص من يد المسلمين، حتى بكى النبي (ص)، عندما رأى حلي خديجة، فعمد المسلمون الى اسقاط حقوقهم، فانظر ـ كما يقول الشيخ ـ دقة النبي (ص) في هذا الامر؟

ب ـ المساواة في الاحكام:

وتتضح من مساواة النبي (ص) بين عمه العباس وابن عمه عقيل من جهة وبين اسراء قريش من جهة اخرى حتى في شد الوثاق، رغم كونهما مجبورين على الخروج للحرب.

ج ـ المساواة في القصاص والعقوبات:

وذلك عندما كشف الرسول (ص) عن كتفه ليقتص منه سوادة، (احد الصحابة)، والرسول (ص) في آخر حياته وقد اشتد به المرض فطلب وهو في تلك الحالة احضار سوطه وعصاه ليقتص منه سوادة الذي ادعى ان الرسول (ص) اراد ان يضرب ناقته في في احدى اسفاره فوقعت العصا على كتف سوادة. غير ان الاخير اكتفى بتقبيل كتف الرسول (ص) وانصرف.

كما صرح الرسول (ص) امام الاشهاد من اجل ارساء هذا المبدأ العظيم: «لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

وقد رفض الامام علي (ع) اقتراحاً بتفضيل بعض الصحابة على بعضهم اقتداء بمن سبقه من الخلفاء غير انه رفض ذلك، فجر عليه تطبيق هذا المبدأ

فتناً طاحنة. كما ان قصة الحديدة المحماة التي كوى بها يد اخيه عقيل؛ لأنه طلب صاعاً من الطعام فوق عطائه معروفة.

ثم ان عتابه لولده الحسين (ع) عندما طلب منه مداً من العسل ليطعم بـه ضيوفه، وموقفه من ابنته لما ارادت ان تستعير عقد لؤلؤ كان في بيت المـال، عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة ايام، هي الاخرى امثلة حية من سيرة الامام علي (ع)[119]. في تطبيق مبدأ المساواة الذي حاد عنه المسـلمون واجـمعوا جهدهم لتطبيق مبادئ اخرى ولدت لنا مجتمعاً طـبقياً لايـنتمي الى سـيرة الرسول (ص) وسـيرة الامـام عـلي (ع). حـتى اصـبحت احـدى وظـائف المصلحين في العصر الحديث هي اعادة قراءة المفاهيم السائدة قراءة جديدة نعود بها الى اصولها الاسلامية ونسعى الى تقريب الفوارق الناشئة عن المفاهيم الحالية. واعتبر الشيخ النائيني ان جزءاً من مهمة الثوار هى العودة الى عـصر الاسلام لكي يعيش المجتمع شيئاً من حياة سيرة الرسول (ص)، تلك الحياة القرآنية التي اكتشف فيها الانسان نفسه واكد خلالها ذاته وشخصيته، فشعر بانسانيته بعد ان كان مضطهداً في ظل المفاهيم الجاهلية التي سادت الشعوب قبل الاسلام، ثم عادت ثانية بعد فترة الرسول (ص) والخلفاء.

٣ ـ الشورى:

اعتبر الشيخ النائيني الشورى احد أهمّ مبادئ الحكم في الاسلام، واحدى الوسائل الفاعلة في مكافحة الاستبداد ورد كيد المستبدين. وحقيقة الحكومة الدستورية هي الحكومة التي تعتمد الشورى في صياغة قوانـينها مـن غـير

---

(١١٩) المصدر نفسه، ص ٢٨ـ٣٦

الاحكام الشرعية وتطبيق مبدأ الشورى في الحكم، وتسد كل المنافذ التي تسرب النزعة الاستبدادية.

وتأتي ضرورة الشورى في الوقت الحاضر من خلو المجتمع من الحاكم المعصوم او الانسان الكامل فلا موجب لان نتنازل عن مبدأ الشورى في الحكم[١٢٠]. وان كان الانسان الكامل وهو شخص الرسول (ص) هو الآخر قد نوشد بالشورى. هذا اولاً.

وثانياً: ان السلطة في الاسلام تعتمد مساهمة جميع افراد الشعب في الحكم (وهذا اصل مسلّم كما نوهنا بذلك). لذا فالدولة الاسلامية تكرس مبدأ الشورى والتشاور مع عقلاء الامة وخبرائها.

ثم ان الشورى منطلق اسلامي نادى بها القرآن الكريم في آيتين من آياته اضافة الى الآيات التي ذكرت تشاور الملوك مع مستشاريهم، دون ان يذم القرآن تلك الممارسات الحضارية. ورفض الشيخ النائيني ان تكون الشورى مختصة ببطانة الحاكم، بل تعني الشورى قرآنياً مشاورة الامة. قال تعالى: «وشاورهم في الامر»[١٢١].فالآية تدل دلالة واضحة على المعنى، وهي «تخاطب الرسول (ص)، العقل الكامل ومعدن الصحة، وتأمره بالتشاور»[١٢٢].

ورغم ان الضمير يعود الى جميع الامة من المهاجرين والانصار، لإفادته العموم، غير ان قرينة الحكم تقضي اختصاص الآية بالعقلاء

---

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ٥٦

(١٢١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٥٣

واصحاب الحل والعقد[123].

كما ان المراد من الاية خصوص الشؤون السياسية دون الاحكام الالهية لأنها خارجة عن دائرة التشاور وانها وحي يوحى[124]، فمقتضى الاية المباركة ان يطرح الحاكم الاسلامي الشؤون السياسية والشؤون العامة للبلاد على بساط البحث والتشاور قبل اتخاذ اي قرار بشأنها.

ثم ان مفاد الاية الاخرى «وامرهم شورى بينهم»[125]. تؤكد ما تقدم من اهمية الشورى وموارد هما.

ولم يترك الاسلام الشورى مبدأ نظرياً تحاصره كثرة التأويلات واختلاف الرؤى، بل اكده بسيرة الرسول (ص) التي تشي باهمية المبدأ وضرورته، فلم يستثن منها حتى هو (ص)،لذا كان يردد كثيراً «اشيروا عليّ اصحابي»[126].

ففي معركة احد كان الرسول (ص) يرى البقاء في المدينة غير ان رأى الاكثرية مع الخروج فخرج الرسول (ص) نزولاً على ذلك لان نتائج المعركة اكدت صحة قول الرسول (ص)[127].

وقد حافظ الخلفاء بعد الرسول (ص) على مبدأ التشاور وكانوا لا يتخذون امراً إلّا بالتشاور فيما بينهم لذلك حققوا انتصارات باهرة[128].

---

(١٢٣) المصدر نفسه،ص ٥٣

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ٥٣

(١٢٥) سورة الشورى، الاية ٣٨

(١٢٦) المصدر نفسه، ص ٥٤

(١٢٧) المصدر نفسه، ص ٥٤

(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٥٤

وفي معركة صفين عدد الامام (ع) حقوق الوالي علـى الرعـية وحـقوق الرعية على الوالي، فقال: «فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عنه اهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولاتظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي، ولا التماس اعظام لنفس، فإنه من استثقل الحق ان يقال له او العدل ان يعرض عليه كان العمل بهما عليه اثقل. فلا تكفوا عن مقالة بحق او مشورة بعدل».

ويضيف النائيني: ان مبدأ الشورى مبدأ اسلامي و«هذه بضاعتنا ردت الينا» بعد ان استفاد الاخرون منها فنالوا درجات عالية من الرقي، فعلينا ان نراجع هذه السيرة الحسنة بعد ان نتجاوز عوائقنا النفسية لنكتشف اهـداف القـرآن وسيرة الرسول (ص) من وراء ارساء مبدأ الشورى، ولنراجـع انـفسنا «هـل اهتمام الرسول (ص) بالشورى، لكي لايقع في الخطأ وهو على ماهو عليه من الدرجة الرفيعة والعصمة ام اراد ان يضع حـداً للـتجاوزات العـمدية ويـقيم السعادة»[129]؟

ويأســف الشـيخ النـائيني «ان عـبدة الظـلمة ورافـعي لواء الاسـتبداد الديني بـمنأى عـن الكـتاب والسـنة واحكـام الشـريعة وسـيرة الرسـول والائمة، فبدلاً من ان تكون الشورى شعارنا الذي يجب ان نرفعه... اعتبرناها مـخالفة للاسـلام وكـاننا لم نـقرأ تـلك الايـة الواضـحة الدلالة.. او لانـها تخالف اهواءنا وتصطدم مع نزعتنا الاستبدادية والاستعبادية تـركناها وراء ظهورنا»[130].

---

(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٥٥

(١٣٠) المصدر نفسه، ص ٥٦

النائيني والمستبد العادل

يلتقي الشيخ محمد حسين النائيني بالسيد جمال الدين المعروف بالافغاني في التنظير الى مفهوم المستبد العادل، فالشيخ النائيني لم يدع الى انتخابات عامة يتم من خلالها انتخاب رئيس الدولة. وانما دعا الى انتخاب مجلس برلماني ينهض بمهمة صياغة دستور يحد من سلطة المستبد ويخلق منه مستبداً عادلاً يعمل بمبادئ الحكم الثلاثة «الحرية،المساواة، الشورى».

وهكذا فعل السيد جمال الدين من قبل، فهو يقول في العروة الوثقى يرد على القائلين ان طريق الشرق الى القوة هو نشر المعارف بين جميع الافراد، وانه «متى عمت المعارف كملت الاخلاق واتحدت الكلمة، واجتمعت القوة» ويرد رداً على هؤلاء «وما ابعد ما يظنون! فان هذا العمل العظيم، انما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الامة على ماتكره ازماناً، حتى تذوق لذته وتجني ثماره..» وكذلك يقول في كتاب الخاطرات:«لا تحيا مصر، ولا يحيا الشرق بدوله، واماراته الا اذا اتاح الله لكل منهم، رجلاً قوياً عادلاً يحكمه بأهله على غير التفرد بالقوة والسلطان»[١٣١].

بينما تجد الامام الخميني قد سد جمع منافذ الاستبداد وعمل بمبدأ الانتخاب لعضوية المجلس النيابي ورئاسة الجمهورية ومجلس خبراء القيادة المكلف بتشخيص الولي الفقيه المناسب للحكم[١٣٢]. فلم يعتمد مبدأ المستبد العادل في الحكم اضافة الى تأكيد الدستور على مبادئ الحكم الاخرى.

---

(١٣١) العروة الوثقى، ص ٦٦، نقلاً عن كتاب الطاغية، مصدر سابق، ص ٧٢

(١٣٢) راجع فقرات دستور الجمهورية الاسلامية

المحتويات

الفصل الثالث

المواقف السياسية

الفصل الرابع

مقومات المشروع الاصلاحي

المؤلف

ماجد الغرباوي

- من مواليد العراق ١٩٥٤ م.
- انخرط في دراسة العلوم الاسلامية في الحوزة العلمية في النجف الاشرف سنة ١٩٧٥م.
- رئيس تحرير مجلة التوحيد منذ عام ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م.
- اصدر سلسلة رواد الاصلاح ويرأس تحريرها حالياً.
- مدرس في الحوزة العلمية في قم.

صدر له:

١ ـ الشيخ المفيد وعلوم الحديث، ١٤١٣ هـ

٢ ـ الرجال المستخرجة من آثار الشيخ المفيد، ١٤١٣ هـ

٣ ـ رجال كتاب الاختصاص، ١٤١٣ هـ

٤ ـ تحقيق الوجيزة في الدراية للشيخ البهائي، ١٤١٣ هـ

٥ ـ ترجمة كتاب الاصول الاربعة في علم الرجال للسيد علي الخامنئي، ١٤١٤ هـ.

٦ ـ تحقيق كتاب نهاية الدراية للسيد حسن الصدر، ١٤١٥ هـ

٧ ـ البحوث الرجالية في كتاب مجمع الفائدة والبرهان، ١٤١٧ هـ

٨ ـ الشيخ محمد حسن النائيني منظّر الحركة الدستورية، ١٤٢٠ هـ.

قواعد النشر في سلسلة رواد الاصلاح

رواد الاصلاح سلسلة دورية تعنى بدراسة مشاريع الاصلاح التي نهض بها الرواد المسلمون وتطمح الى رقي وعي الفرد والامة الى مستوى المسؤولية الرسالية، لذا تبدي المؤسسة استعدادها لنشر الدراسات التي تتوافر فيها الشروط التالية:

١ ـ أن تكون المواد منسجمة مع الخط العام للمؤسسة، من حيث التخصص والتوجه الفكري والثقافي.

٢ ـ مراعاة الجانب المنهجي والعلمي، بعيداً عن لغة الاستعراض، وتحمل افكاراً جديدة.

٣ ـ اعتماد الاصول العلمية المتعارفة في الكتابة، كالدقة في استعمال المصادر والمراجع وتثبيتها بعناوينها الكاملة واسماء كتّابها وارقام صفحاتها، مع اسم الناشر ومكان النشر ورقم وتاريخ الطبعة، مع قائمة بالمصادر منفصلة عن الهوامش.

٤ ـ من حق المؤسسة اجراء تعديلات على المادة واختصار بعض فقراتها او الطلب من الكاتب القيام بذلك.

٥ ـ يمنح الكاتب مكافأة رمزية، وفق ضوابط النشر، او حسب العقد المبرم بين الطرفين بعد الموافقة على نشره، علماً ان تاريخ النشر يخضع للضوابط الفنية.

٦ ـ يرفق مع مخطوطة الكتاب:

أ ـ ملخص للكتاب يشتمل على اهم ما ورد فيه من (٥ ـ ١٠) صفحات.

ب ـ نبذة عن حياة الكاتب العلمية مشيراً فيها الى اهم اعماله.

صدر عن سلسلة رواد الاصلاح

١ ـ منهج الشهيد الصدر في تجديد الفكر الاسلامي

عبد الجبار الرفاعي

٢ ـ الامام الخميني والمشروع الحضاري الاسلامي

الدكتور سمير سليمان

٣ ـ الشيخ محمد رضا المظفر.. وتطور الحركة الاصلاحية في النجف

الشيخ محمد مهدي الآصفي

٤ ـ الشيخ محمد حسن النائيني منظّر الحركة الدستورية

ماجد الغرباوي